معالم العلاقة مع غير المسلمين

في حالتي الضعف والخوف

المرحلة المكية نموذجاً

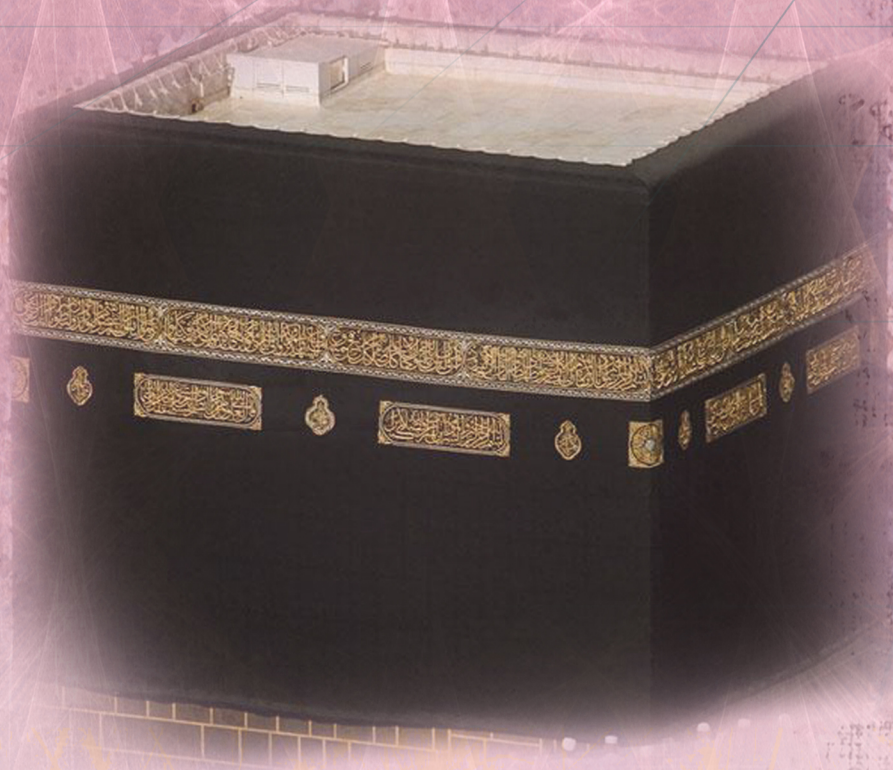

حميد الصغير

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

معالم العلاقة مع غير المسلمين

في حالتي الضعف والخوف

[المرحلة المكية نموذجاً]

بقلم: حميد الصغير

أستاذ باحث بالدراسات الإسلامية

جامعة محمد الأول وجدة – المملكة المغربية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

-توطئة: السيرة الإجمالية قبل النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم:

إن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد جمع في نشأته بمكة، خير ما في طبقات الناس من الخصال والميزات، فكان عليه السلام طرازا فريدا، ونموذجا رفيعا، من الفكر الصائب، والنظر السديد. ونال حظا وافرا من حسن الفطنة، وأصالة التفكير، وسداد الرأي والعمل. فكان محمد صلى الله عليه وسلم، يختلف عن أقرانه اختلافا منقطع النظير، في طفولته، وشبابه، فكان يجمعهم به الزمان، والمكان. ولكنه عليه السلام كان من نوع خاص، حيث تفرد بحسن الأخلاق، وعظيم السجايا، حتى أصبح محل إجماع قريش، على أنه قدوة العرب، وإن في جاهليتهم. "فكان عليه السلام يستعين بصمته الطويل، على طول التأمل، وإدمان الفكرة، واستكناء الحق. وطالع بعقله الخصب، وفطرته الصافية صحائف الحياة، وشؤون الناس، وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها"[1].

عايش صلى الله عليه وسلم الناس، وما كانوا عليه من جاهلية جهلاء، ولكنه كان متبصرا في أمره، وأمرهم، فما وجده حسنا، شاركهم فيه، وما عافته نفسه، وفطرته، أعرض عنه، وعاد إلى عزلته للتأمل، والتفكر، فلم يدنس نفسه، وشرفه، بعهر، ولا شرب خمر، ولا لعب ميسر ولا أكل ما ذبح على النصب، ولم يعبد وثنا، ولا صنما، ولم يحضر له عيبا، ولا احتفالا، "فكان محمد صلى الله عليه وسلم نور يمخر عباب ظلام الجاهلية"[2].

كانت العناية الربانية تحوط محمدا صلى الله عليه وسلم، وكان القدر يحفظه، فعندما تتحرك نوازع نفسه لاستطلاع بعض متع الدنيا، ولذاتها، كمشاركة الآخرين بعض ما هم فيه من العادات الباطلة، والتقاليد الفاسدة مثل: الزنا، والرقص، والمجون، .... كان القدر يتدخل للحيلولة دون ذلك،

---

[1] - "الرحيق المختوم" للمباركفوري، ص: ٧٢.

[2] - "فقه السيرة النبوية" للبوطي، ص: ٧٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال عليه السلام:"ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون، غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني، وبينه"[٣].

كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأعزهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وألينهم عريكة، وأعفهم نفسا، وأكرمهم خيرا، وأبرهم عملان وأوفاهم عهدا، وأمنهم أمانة، إنها صورة مشرقة، وصفحة بيضاء، لشباب سيد العالمين، وآخر المرسلين عليه السلام، وهكذا اصطفى الله محمدا صلى الله عليه وسلم، وأكرمه بالرسالة، فنزل عليه جبريل بالقرآن، وهو ينادي: "يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل"[٤].

وبعدما اصطفاه الله عز وجل، وأكرمه بالرسالة، أمر الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالنهوض بأعباء الدعوة إلى الدين الخالد، والعمل على إخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام. فقرع مسمعه قوله تعالى: {يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر} [المدثر: ١]. هي أوامر بسيطة، ولكنها بعيدة المدى والغاية، قوية الأثر والفعل، زلزلت كيان الرسول عليه السلام، وشغلت باله، وعقله، ونفسه، مدة طويلة، إنها كلمات ربانية، عظيمة، انتشلت النبي عليه السلام من دفء الفراش، وأخرجته من جو البيت الدافئ، ودفعت به صلى الله عليه وسلم في خضم الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل إبلاغ الرسالة إلى الناس. فقام على إثرها النبي عليه السلام ثلاث وعشرين سنة، كانت مليئة بالتضحيات، والمشاق، والابتلاءات..." وكأنه قيل له: إن الذي يعيش لنفسه، قد يعيش مستريحا، أما أنت الذي تحمل هذا العبء الكبير، فمالك والنوم؟ ومالك

---

[٣] – أخرجه الحاكم في: "المستدرك" عن علي بن أبي طالب وصححه، قال: صحيح على شرط مسلم: ٢٤٥/١ وأخرجه كذلك الذهبي في: "تاريخ الإسلام": ٧٩/١.

[٤] – "السيرة النبوية" لابن هشام: ١٤٠/١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والراحة؟ ومالك والفراش الدافئ؟ والعيش الهانئ؟ والمتاع المريح؟ قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك"[٥].

وقام النبي صلى الله عليه وسلم، وظل قائما بعدما أكثر من عشرين عاما، لم يسترح، ولم يسكن، ولم يعيش لنفسه، ولا لأهله، ولكنه. "حمل على عاتقه العبء الثقيل والباهظ: عبء الأمانة الكبرى على هذه الأرض، عبء البشرية كلها، عبء العقيدة كلها، عبء الجهاد والكفاح في ميادين شتى، عاش في المعركة الدائبة المستمرة، أكثر من عشرين عاما، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد"[٦].

إن علاقة المسلمين بغيرهم خلال المرحلة المكية، والتي وسمتها بمرحلة الخوف والضعف، كانت علاقة حرب استئصالية، وعلاقة اضطهاد، وإيذاء، وتعذيب... حيث يمكن تصور هذه العلاقة على أنها، كانت من جانب واحد، قوي، امتلك القوة والسلطة والزعامة، وبذلك سلط مشركو قريش جام غضبهم، على فئة من المسلمين المستضعفين، الذين اعتنقوا الدعوة الجديدة، حيث أن كفار مكة لم يألوا جهدا، ولم يذخروا وسعا في وأد الدعوة الوليدة، في مهدها، كما كانوا يفعلون بإناثهم في الجاهلية. ولكن بالرغم من كل ذلك، فقد استطاع الرسول عليه السلام، بصبره، وحكمته، وأناته، وبعد نظره، أن يحافظ على بيضة الإسلام سليمة، وأن يبقى على حياة السابقين، الأولين من الصحابة، وأن يؤسس نواة مجتمع مسلم، وسط بيئة تعمها الجاهلية ويلفها الظلام والظلم من جميع الجهات. وبذلك رسم عليه السلام خلال مقامه في مكة، صورة واضحة المعالم في كيفية التعامل مع غير المسلمين في حالتي الضعف والخوف، حتى تكون قدوة لكل مسلم، عاش مضطهدا، خائفا على نفسه، ودينه في كل زمان ومكان.

---

٥ – "الرحيق المختوم" للمباركفوري، ص: ٨٥.

٦ – "في ظلال القرآن" للسيد قطب: ١٦٨/٢٩، تفسير سورة المدثر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويمكن أن نحدد معالم علاقة المسلمين بغيرهم خلال فترة الخوف والضعف، ومن خلال استقراء أحداث السيرة في مكة، فيما يلي:

* المبحث الأول: الاشتغال بسرية الدعوة، مع التركيز على بناء العقيدة:

اقتضت طبيعة الدعوة في بداية المرحلة المكية ان تكون سرية، فقد اتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى دعوة ألصق الناس به، ومن توسم فيهم الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، لأن مكة كانت مركز ديانة العرب، وبها سدنة البيت الحرام، والمشركون ينحر بعضهم بعضا، من أجل أتفه الأسباب، فما الظن بمن سيغير الدين والعقيدة؟ ويأتي بما لم يعهده الآباء والأجداد!.

لاشك أن الأمر جلل، والخطب عظيم، يحتاجان إلى عزيمة صادقة، ورغبة جامحة، وحكمة متبصرة، وعزم صادق – وكل ذلك من شيم الرسول عليه السلام – فكان صلى الله عليه وسلم يستقرئ الواقع جيدا، ثم يتصرف وفق ما يشترطه هذا الواقع. ومن هنا كانت السرية في الدعوة إلى الله، من أهم المسالك التي سلكها النبي عليه السلام في التعامل الأولي مع غير المسلمين. "فقد اجتهد عليه السلام في دعوة من يغلب على ظنه، أنه سيدخل في هذا الدين، وسوف يكتم أمره، وهذا من باب السياسة الشرعية، والنظر المصلحي للدعوة، فيجب الأسرار بالدعوة، إذا كان الجهر يضربها"[٧].

وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم من ظن فيهم خيرا، وكان يطلب ممن يدعوه أن يكتم أمره، إذا لم يستجب لدعوته، "فأجابه من هؤلاء جمع عرفوا في التاريخ الإسلامي، بالسابقين الأولين، وفي مقدمتهم زوجة النبي عليه السلام، أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه: زيد بن حارث بن شرحبيل الكلبي، وابن عمه علي بن أبي طالب –وكان صبيا يعيش في كنف الرسول – وصديقه الحميم: أبو بكر

---

[٧] – "وقفات تربوية مع السيرة النبوية" لأحمد فريد، ص: ٦٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الصديق، أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة"[٨]. وبعد ذلك نشط هؤلاء في الدعوة إلى الإسلام، "وكان أولهم في ذلك: أبو بكر الصديق، وكان رجلا مألفا، محببا، سهلا، ذا خلق ومعروف... فأسلم بدعوته: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمان بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله"[٩].

أسلم هؤلاء السابقون سرا، وكان الرسول عليه السلام يجتمع بهم، ويرشدهم إلى الدين متخفيا، مجتمعا بهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان في أوائل ما نزل: الأمر بالصلاة: ركعتين بالغداة، وركعتين بالغشي، "فكانوا إذا حضرت الصلاة، ذهبوا متفرقين في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم"[١٠].

وبعد مرور أيام معدودات، بلغ خبر الدعوة الجديدة إلى مسامع قريش، لكنها لم تأخذها على محمل الجد، حيث "ترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماما، لعلها حسبت محمدا احد أولئك الديانين، الذين يتكلمون في الألوهية، وحقوقها، كما صنع أمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل، وأشباههم، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره، وامتداد أثره، وأخذت ترقب على الأيام مصيره، ودعوته"[١١].

اقتضت طبيعة المرحلة المكية، أن تكون بداية التعامل مع غير المسلمين، على هذا النحو من السرية، والكتمان في الدعوة، واستمر هذا الأمر ثلاثة أعوام، قويت فيها شوكة المسلمين، وكثر عدد الداخلين إلى الدين الجديد، وبذلك فشا ذكر الإسلام في مكة، وتحدث الناس به، فأصبح "الدين الجديد"، الشغل

---

٨ – "رحمة للعالمين" للمنصور فوري: ١/٥٠.

٩ – "الرحيق المختوم" للمبار كفوري، ص: ٨٨.

١٠ – "السيرة النبوية" لابن هشام: ١/٢٤٧.

١١ – "فقه السيرة" للغزالي، ص: ٧٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشاغل للمشركين، وحديث مجامعهم، وهم يومهم، حتى نزل قوله تعالى:{فاصدع بما تومر وأعرض عن المشركين}[الحجر: ٩٤].

وأهم ما ميز المرحلة السرية في الدعوة، هو أن علاقة المسلمين بغيرهم، ظلت عادية، فقريش في بداية أمرها، لم تعر هذا الحدث كبير اهتمام، وإنما اعتبرت محمدا صلى الله عليه وسلم مجرد متحنث، وقد سبقه إلى نفس الفعل بعض عباد العرب كقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل... ولكن لما بدأ أتباع الدعوة الجديدة يتكاثرون، ويزداد عدد الذين انخلعوا عن دين الأباء والأجداد، أصبح الأمر يثير فضول مشركي قريش، ويحرك وساوس نفوسهم، خاصة بعد المناوشات القليلة، والمتكررة، والتي أبداها بعض السابقين الأولين بالجهر بالإسلام، في تحد واضح لقريش، وزعمائها، ومنهم: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحينما أسلم –وكان عدد المسلمين يقارب الأربعين نفرا– أشار على الرسول عليه السلام بإظهار الأمر، فقال رضي الله عنه:"يا رسول الله علام نخفي ديننا، ونحن على الحق، وهم على الباطل؟ فرد عليه السلام:"يا عمر، إنا قليل، وقد رأيت ما لقيناه"[١٢]. وما فعله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حينما أسلم، فكان أول من جهر بالقرآن الكريم، قال ابن اسحاق: حدثني يحيي بن عروة بن الزبير عن أبيه قال:"كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع يوما أصحاب رسول الله فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا، فقال عبد الله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: بسم الله الرحمان الرحيم رافعا بها صوته: {الرحمان علم القرآن}[الرحمان: ١،٢] قال: ثم استقبلها يقرؤها، قال: فتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه يتلو بعض ما

---

١٢ – "البداية والنهاية"، لابن كثير: ٦٧/٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جاء به محمد فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ، حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ...[١٣].

وتفاديا لأية مواجهة محتملة مع كفار قريش، وحفاظا على حياة أصحابه، كان الرسول عليه السلام يمنع الجهر بالإسلام، خلال هذه المرحلة الدقيقة، والحرجة من عمر الدعوة، ولكنه صلى الله عليه وسلم قد أذن لفئة قليلة من المسلمين، من إظهار دعوتهم، والجهر بإسلامهم أمام مشركي قريش، ماداموا في منعة من أقوامهم، ولا يستطيع أحد من المشركين أن يمد يديه إليهم بسوء. لقوة عشيرتهم، أو نفوذها. "فمن هنا تدرك أن أسلوب دعوته عليه السلام في هذه الفترة، كان من قبيل السياسة الشرعية، بوصف كونه إماما، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى، بوصف كونه نبيا"[١٤].

وبناءا على ذلك، فإن علاقة المسلمين بغيرهم في حالة الضعف، خاضعة لشروط الواقع المعيش، وقراءة موازين القوى، وتحكيم حجم المصالح والمفاسد، والتصرف وفق ذلك كله، كما أن هذه العلاقة مرتبطة بسياسة الإمام الشرعية، ومراعاة أحوال الزمان والمكان، فلو سمح الرسول عليه السلام بالمواجهة المباشرة أو إعلان الحرب على مشركي مكة، لكان المسلمون الطرف الخاسر بكل تأكيد لكثرة الكفار وغلبتهم. "ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة، بحيث يغلب الظن أنهم يستقيلون من غير أي نكاية في أعدائهم، إذا ما أجمعوا قتالهم، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة النفس، لن المصلحة المقابلة هي: مصلحة حفظ الدين موهومة، أو منفية الوقوع"[١٥].

---

[١٣] – "السيرة النبوية" لابن هشام: ١/١٨٢ و١٨٣، أول من جهر بالقرآن.

[١٤] – "فقه السيرة" للبوطي، ص: ١٠٧.

[١٥] – "ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية" للبوطي، ص: ٦٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فمسالمة المسلمين للكفار في حالة الضعف أو الخوف، أمر لا مفر منه، لأن المواجهة لا تجدي شيئا، ولم تتحقق أسبابها بعد، وهي في هذه الفترة مفسدة محضة لأن "الجهاد، لو وجب في الابتداء لأباد الكفرة أهل الإسلام، لقلة المؤمنين، وكثرة الكافرين"[١٦].

"فإذا لم تحصل النكاية [بالعدو] وجب الانهزام، لما في الثبوت من فوات النفس، مع شفاء صدور الكفار، وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة، ليس في طيها مصلحة"[١٧] إن كتمان الدعوة، والأسرار بها، سياسة مصلحية، شرعها الرسول عليه السلام، استجابة لضرورة، فرضها الواقع، وإلا فالأصل هو بيان الدين، وتوضيحه للناس، وقد استغل الرسول صلى الله عليه وسلم مرحلة سرية الدعوة، في البناء العقدي للصحابة رضوان الله عليهم، حيث رسخ أركانها في عقولهم وقلوبهم، لأن العقيدة الصحيحة هي التي تنبثق منها العبادة الصحيحة، والسلوك القويم، والموقف السليم، فالعقيدة كانت حضن السابقين الأولين، وملاذهم الآمن كلما اشتدت بهم المحن والشدائد، والدليل على ذلك أنه لم يرتد أحد منهم عن دينه، في مرحلة التعذيب والإيذاء، واحتدام المواجهة.

"فكان القرآن ينزل لترسيخ العقيدة الصحيحة، وتثبيتها في نفوس المؤمنين، وإيضاحها للناس أجمعين، وذلك ببيان توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، فالإيمان بكل ما أخبر الله به من الملائكة والكتب والنبيين والقدر خيره وشره، واليوم الأخر"[١٨]. ولم يقتصر الرسول عليه السلام في تربيته لأصحابه على أركان الإيمان السابقة، بل صحح عندهم كثيرا من المفاهيم، والتصورات، والاعتقادات، عن الإنسان، والحياة، والكون، حتى يفهموا حقيقة وجودهم، ويدركوا هدف استخلافهم

---

[١٦] – "قواعد الأحكام في مصالح الأنام" للعز بن عبد السلام: ٤٦/١.

[١٧] – نفس المصدر: ٨٨/١.

[١٨] – "أهمية الجهاد في نشر الدعوة" لعلي العلياني، ص: ٤٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في الأرض، ويحققوا ما أراده الله منهم غاية التحقيق، فيتحرروا من الأوهام، والخرافات التي رانت على قلوبهم، وأطبقت على أنفسهم سنين الجاهلية الطويلة.

كما كان لحديث القرآن المكي، عن اليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر، وتصويره للجنة، والنار تصوريا دقيقا، أثرا عميقا في نفوس الصحابة، وسببا رئيسيا في ثباتهم وصبرهم، وشدة تحملهم. وبهذا كله، "شق الرسول عليه السلام طريقه، بكل تخطيط، ودقة، وأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والإنسياب الطبيعي في المجتمع، والإعداد الشامل للمرحلة ما بعد السرية، لأنه عليه السلام يعلم أن الدعوة إلى الله، لم تنزل لتكون سرية، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لتكون الحجة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس"[١٩].

[١٩] – "السيرة النبوية" لعلي الصلابي: ١/١٠٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأمام هذا الإصرار من الرسول صلى الله عليه وسلم على الدعوة، وصبر أتباعه على جنون قريش، وتحملهم جميع أصناف الإيذاء، وألوان العذاب، المعنوية والمادية، خارت قوى أهل الشرك، وفتر حماسهم، وضعفت معنوياتهم، ووقفوا عاجزين، مدهوشين أمام صبر المسلمين، وقوة تحملهم، خاصة بعدما جربوا كل ما كان متاحا عندهم من وسائل، وإمكانيات، وخطط، لو أد الدعوة الجديدة في مهدها، حتى لا يصل نورها إلى الناس خارج مكة. إن أهم ما ميز علاقة المسلمين بغيرهم خلال هذه الفترة من الدعوة يمكن إجماله فيما يلي:

-أولا: الصبر على أذى المشركين وفتنتهم:

تفننت قريش في تسليط جميع ألوان التعذيب، والتنكيل، على أجساد المسلمين، ونفسياتهم[٢٠] لصدهم عن الإسلام، والرجوع إلى دين الآباء والأجداد، لكن الرسول عليه السلام كان يأمرهم بالصبر، والاحتساب، ويبشرهم بالجنة، إن هم صبروا، واحتسبوا، كما كان الرسول عليه السلام يأمر أصحابه بضبط النفس، وعدم مقارعة القوة بالقوة، أو رد العدوان بعدوان مثله، حرصا على حياتهم، وحفظا لمستقبل الدعوة لئلا يئدها الشر، وهي لا تزال غضة طرية، ولعل المشركين كانوا يسومون المسلمين سوء العذاب، حرصا منهم لبلوغ مواجهة مبكرة، وحاسمة مع الدعوة الإسلامية، تنهي أمرها، وتقضي على وجودها، لكن حكمة الرسول عليه السلام، وأناته، وبعد نظره، فوت على زعماء قريش ذلك الهدف المشؤوم، "فكان القرآن ينزل، لتثبيت النبي عليه السلام، وأصحابه، بتعميق المعاني الإيمانية، وغرس الصبر في نفوسهم، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة، وانتزاع شوائب الجاهلية، وبقاياها من سلوكهم،

---

٢٠ – انظر ما سلط من العذاب على المسلمين السابقين في: "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١٩٦/١. و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٨٤/١، و"البداية والنهاية" لابن كثير: ١٠٣/٤، و"زاد المعاد" لابن القيم: ٧٩/٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعاداتهم، وأمرهم بالاستعانة بالصلاة، والصبر، وتوثيق الصلة بالله تعالى، ليزداد إيمانهم، ويقووا على مواجهة أعدائهم"[٢١].

وقد كان للعبادات دور مهم في تثبيت الصحابة، وتقوية عزائمهم، وأول هذه العبادات: الصلاة، حيث كان الرسول عليه السلام، إذا أهمه أمر فزع إلى الصلاة، وقد جعلت قرة عينه فيها، وبذلك ربى عليه السلام السابقين الأولين على الصلاة، وعلمهم كيف تصبح هذه الأخيرة، سلاحا فتاكا، ومهما في حل المشاكل، وتفريج الكربات، وتحمل الأذى، فكان الصحابة حينما يصلون، تستريح أنفسهم، وتصفى أرواحهم، وتمتلأ قلوبهم إيمانا، ويقينا، بأن الله ناصرهم، ومعينهم.

كما عود الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه على التأمل، وإعمال العقل في أنفسهم، وفيما يحيط بهم من مخلوقات، وفي مصير من سبقهم من الأمم والشعوب، وفي التفكر فيما قصه القرآن المكي من قصص، وبهذا التأمل العميق، تجردت عقول الصحابة من أدران الجاهلية ولوثتها، فأدركوا حقيقة وجودهم، فعظم الله في نفوسهم، وترسخت محبة النبي عليه السلام في قلوبهم، وأصبحت عبادة الله، وطاعة رسوله عليه السلام، غاية مقصدهم، وهدف سعيهم، وثمرة حياتهم، وقد انعكس إيمان الصحابة على أخلاقهم، فاتصفوا بمكارم الأخلاق، وتحلوا بعظيم السجايا، حتى أصبحوا مثل الورود اليانعة، وسط صحراء جرداء، قاحلة، "لأن الأخلاق ليست شيئا ثانويا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين، من نطاقات السلوك البشري، إنما هي الترجمة العملية للاعتقاد، والإيمان الصحيح، لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب، وإنما هو عمل سلوكي، ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا،

---

[٢١] – "عصر السيرة النبوية" لأكرم ضياء العمري، ص: ١٠٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حين لا نرى ذلك السلوك العملي، أو حين نرى عكسه، أن نتساءل: أين الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك؟"[٢٢].

– ثانيا: تجنب المواجهة مع المشركين:

لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم –في هذه الفترة – رغم ما أذاقته قريش من أصناف العذاب، المعنوي والمادي، للموحدين، وما نكلته بأجسادهم من تنكيل: أن أمر أحدا من أصحابه الكرام، برد الظلم، ومقاومة العدوان، ولم يلجأ عليه السلام إلى التعامل بالقوة، مع المشركين، لأن موازين القوة، ليست في صالح الإسلام، والمسلمين، فهم قلة، مستضعفون، لا سلاح معهم، وبذلك فالمواجهة المباشرة مع أهل الكفر، تعني الإيذان المبكر بوأد الدعوة الإسلامية الوليدة، والحكم على أتباعها بالموت، دون أية نكاية في صفوف العدو، أو تكبيده خسائر جسيمة.

"وقد كان بإمكان الرسول عليه السلام، أن يفعل ذلك، بكل يسر وسهولة، إذ كان يستطيع أن يكلف أحدا من الصحابة، بقتل بعض قادة الكفر، كالوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، أو أبو جهل... وهؤلاء هم أشد الناس أذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنه عليه السلام لم يأمر أحدا من أصحابه باغتيال أحد من المشركين، أو غيرهم من أعداء الإسلام، فإن مثل هذا الفعل، قد يودي بالجماعة الإسلامية كاملة، أو يعرقل مسيرتها مدة، ليست باليسيرة، كرد فعل من أعداء الإسلام، الذين يتكالبون حربه"[٢٣].

---

٢٢ – "دراسات قرآنية" لمحمد قطب، ص: ١٣٠.

٢٣ – "الحكمة من الدعوة إلى الله" لسعيد القحطاني، ص: ١٣٣ و١٣٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن أجل ذلك أمر الله نبيه عليه السلام، بالصدع بالحق، والإعراض عن المشركين، قال تعالى:{فاصدع بما تومر، وأعرض عن المشركين}[الحجر: ٩٤] والإعراض عن المشركين يعني: فكرتين في وقت واحد[٢٤]:

-الأولى: المسير بالدعوة من الداعية، وإيضاح معالمها غير عابئ بغضب خصومها.

-الثانية: عدم مواجهة أذاهم المعنوي، والمادي، ومحاولاتهم تحريجه [محمد صلى الله عليه وسلم] والنيل منه، والهزء به، وتمثل قوله تعالى:{سلام عليكم، لا نبتغي الجاهلين}[القصص: ٥٥] أذن الله لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يصدع بالحق، ويعرض عن المشركين:"أي أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، ولا يلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوه عن آيات الله، ولا يخافهم، فإن الله كافيه إياهم، وحافظه منهم"[٢٥]، فكان الرسول عليه السلام يمر بأصحابه وهم يتعذبون، فيصبرهم ويثبتهم، ويدعو لهم، "فكانت بنو مخزوم يخرجون آل ياسر، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول:"صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة"[٢٦] .

---

[٢٤] - "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ٤٤/١.

[٢٥] - "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير: ٥١٣/٢: تفسير سورة الحجر، الآية: ٩٤.

[٢٦] - "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٢٢٩/١، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٨٦/١، و"إمتاع الأسماع" للمقريزي: ١٠٧/٩ و١٠٨.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

* المبحث الثاني: الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، مع الإعراض عن المشركين.

ما إن انتهت مرحلة سرية الدعوة، حتى دخلت علاقة المسلمين بغيرهم منعطفا تاريخيا صعبا، كان أشد على الإسلام، والمسلمين من سابقه، وشعار هذه المرحلة الجديدة: التوجيه الرباني الحكيم: {فاصدع بما تومر، وأعرض عن المشركين}[الحجر: ٩٤].

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يعكر على خرافات الشرك، وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام، وما لها من قيمة في الحقيقة، يضرب بعجزها الأمثال، ويبين بالبينات، أن من عبدها، أو جعلها وسيلة بينه وبين الله، فهو في ضلال مبين[٢٧]. وبذلك انفجرت مكة بمشاعر الغضب، والاستهجان، وماجت بالوعيد، والاستنكار، فلم تكن قريش تتوقع أن يخرج صوت من مكة يجهر بتضليل دين الأباء، والأجداد، ويسفه عبادة الأوثان، والأصنام، فالجهر بهذه الدعوة في مكة، كان بمثابة صاعقة، قصفت السحاب، فرعدت، وبرقت، وزلزت أجواء مكة الهادئة. وعلى إثر ذلك قامت قريش قومة رجل واحد، لحسم هذا الأمر، ووأده في مهده، حتى لا يسمع الناس به، فتذهب هيبة مكة، وحبها من قلوب العرب، ويفقد زعماء قريش خطوتهم، ومكانتهم بين القبائل.

وقد تفننت قريش، وابتكرت جميع الأساليب، لمجابهة الدعوى الوليدة. فكان الجهر بالدعوة الإسلامية نقطة تحول علاقة مشركي مكة مع المسلمين، فبعد عدم اللامبالاة من طرف زعماء قريش اتجاه الدعوة الجديدة، ثم التوجس والحذر منها، لكن بعد الجهر بالدعوة، أعلنت قريش حربا شعواء على الإسلام والمسلمين، لم يسلم منها أحد من الأتباع الجدد، بل لم يسلم منها حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ذاق عليه السلام نصيبه من البلاء، والعذاب، "أما أصحابه رضوان الله عليهم، فقد تجرع كل واحد منهم ألوانا من العذاب، حتى مات منهم من مات تحت العذاب، وعمي من عمي، ولم

---

[٢٧] – "الرحيق المختوم" للمبارك كفوري، ص: ٩٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يثنهم ذلك عن دين الله شيئا"[٢٨]. ولكن رغم كل هذا التنكيل، والتعذيب، فقد سطر السابقون الأولون ملاحم بطولية، وصورا خالدة من ألوان الصبر والاحتساب، وتحمل الأذى في سبيل العقيدة، ما يعجز اللسان عن وصفه، ويبقى خالدا في قلب، ووجدان كل مسلم إلى يوم الدين. واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدع بالحق، وتبليغ الدعوة إلى الناس، ولم يثن غرمة، ما لقيه أصحابه من الفتنة، والأذى، "واستمر يدعو إلى الله تعالى ليلا ونهارا، سرا وجهارا، لا يصرفه صارف عن ذلك، ولا يرده راد، ولا يصده صاد، يتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم، ومحافلهم، وفي المواسم، ومواقف الحج، يدعو من لقيه، من حر وعبد، وضعيف وقوي، وغني وفقير"[٢٩].

---

[٢٨] – "السيرة النبوية" لابن هشام: ١/١٨٤ و١٨٥ و١٨٦: ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى، و"السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١/١٩٦: باب ما نال أصحاب رسول الله من البلاء والجهد، و"إمتاع الأسماع" للمقريزي، ج ٨، ص: ١٠٥: المستضعفون الذين عذبوا في سبيل الله.

[٢٩] – "البداية والنهاية" لابن كثير: ٤/١٠٣ و١٠٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

*المبحث الثالث: رفض الإغراءات والمساومات على حساب العقيدة.

من المسالك التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، في التعامل مع غير المسلمين، في هذه المرحلة: رفض المساومة على حساب الدين، والعقيدة، حيث رفض عليه السلام كافة الإغراءات، وجميع المساومات التي طرحها زعماء مكة، للكف عن الدعوة إلى الإسلام، وتبليغ الرسالة إلى الناس فحينما أدرك مشركو مكة، أن محاولاتهم في إيذاء الرسول عليه السلام، وتعذيب أصحابه، والتنكيل بهم، قد ذهبت سدى، وقفوا عاجزين، مكتوفي الأيدي أمام ثبات الصحابة رضوان الله عليهم، وصمودهم على الحق، وهم قلة مستضعفون، لا حول لهم ولا قوة.

فالنبي عليه السلام "لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل، أو آجل إنه أزاح الغشاوة عن الأعين، فأبصرت الحق الذي حجبت عنه دهر، ومسح الران عن القلوب، فعرفت اليقين الذي فطرت عليه، وحرمتها الجاهلية منه"[٣٠].

جرب مشركو قريش كل الوسائل، والطرق لثني عزيمة المسلمين عن الإسلام، وارتدادهم عنه، لكن ذلك لم يزد السابقين الأولين إلا عزما، وتصميما، وثباتا على الإسلام، "عرف زعماء قريش ذلك جيدا، لكن ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين، أعلى مثل للقيم البشرية ولمكارم الأخلاق، لم يعرفوا له نظيرا، ولا مثيلا، خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء والأقوام؟ ماذا سيفعلون"؟ تحيروا في ذلك، وحق لهم أن يتحيروا"[٣١] . لذلك رأى زعماء مكة أن يجربوا أساليب أخرى – غير التعذيب والإيذاء- لعلها تفتن المسلمين عن دينهم، وتثنيهم عن أهدافهم، ولعل الإغراء، والمساومة يحقق ما عجز عنه التعذيب، والتنكيل.

---

٣٠ – "فقه السيرة" للغزالي، ص: ١١٢.

٣١ – "الرحيق المختوم" للمباركفوري، ص: ١١٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبناءا على هذا القرار، أرسل مشركو مكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، من يحذره، ويعرض عليه زينة الحياة الدنيا، ومتاعها، عوضا عن ترك الدعوة والدين. فجاء عتبة بن ربيعة، يساوم الرسول عليه السلام على ترك دعوته، فقال له:"ا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة"[٣٢]، في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك، أمورا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها"، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:"قل، يا أبا الوليد، أسمع"، قال:"يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به، من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا، سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا، تراه، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه". حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله يستمع منه قال عليه السلام:"أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال:"فاسمع مني"، قال:"أفعل" فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أوائل فصلت، حتى إذا انتهى إلى السجدة، فسجد، ثم قال:"قد سمعت يا أبا الوليد، ما سمعت، فأنت، وذاك"[٣٣].

ربى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته على التمسك بالحق، والإذعان له، والصبر عليه، خاصة إذا كان هذا الحق يتعلق بالإسلام، ورسالته، وبذلك رفض عليه السلام كل مساومة رخيصة، او إغراء باطل على حساب العقيدة، والدين. وإذا استقرأنا أحداث السيرة النبوية، خلال المرحلة المكية، نجد ان قريشا، كلما ضاقت بها السبل، ووصلت إلى الطريق المسدود، في كف محمد صلى الله عليه وسلم عن تبليغ رسالة ربه، لجأت إلى أسلوب المساومة. لكن الرسول عليه السلام ظل متمسكا برأيه،

---

[٣٢] – السطة: الرفعة، والمنزلة، لسان العرب: مادة [س.ط.و].

[٣٣] – "السيرة النبوية" لابن هشام: ٣١٣/١، بتصرف بسيط.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثابتا على الحق، صامدا في موقفه، إزاء كل مساومة خسيسة، قد تقوض أركان الإسلام، أو تهدم بنيانه، أو تخالف شيئا مما شرعه الله عز وجل، ومن ذلك: ما حدث مع أشراف قريش، حين اشترطوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يطرد فقراء المسلمين، أمثال: بلال، وصهيب، وعمار، وخياب بن الإرث وعبد الله بن مسعود، ... وان يجعل لهم مجلسا خاصا، غير مجلس هؤلاء الفقراء، لعلو مقامهم ورفعة منزلتهم، وسيادتهم في قومهم، حتى يؤمنوا بما جاء به، ويعلنوا إسلامهم بين الناس، فقد ورد في صحيح مسلم: أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم:"اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا"، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل:{ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة، والعشي يريدون وجهه}[الأنعام: ٥٢][٣٤]. فرفض رسول الله عليه السلام، هذه المساومة الرخيصة، امتثالا لأمر الله عز وجل، "وإعلانا عن القيم الحقيقية، التي تبرهن على أن الإسلام لا يزن الناس بموازين الجاهلية الأولى"[٣٥].

فأمر الله رسوله عليه السلام "بألا يبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنه، بل يجعلهم جلساءه، وأخصاءه، [ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء] كقول نوح عليه السلام: في جواب الذين قالوا: أنؤمن لك، واتبعك الأرذلون، قال:"وما علمي بما كانوا يعلمون، إن حسابهم إلا على ربي، لو تشعرون، أي: إنما حسابهم على الله، وليس علي من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء"[٣٦].

وذكرت بعض كتب السيرة النبوية، أن قيادات مكة، دخلوا في مفاوضات بعد ذلك، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشرية، ممن أراد الدنيا وطمع في

---

[٣٤] – صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب: فضائل: سعد بن أبي وقاص: ٩١٢/٤، رقم الحديث: ٦٢٦٧.

[٣٥] – "في ظلال القرآن" للسيد قطب: ٨٢١/٢.

[٣٦] – "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير: ١٢٥/٢: تفسير سورة الأنعام: الآية: ٥٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مغانمها، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ موقفا حاسما في وجه الباطل، دون مراوغة او مداهنة أو دخول في دهاء سياسي، أو محاولة وجود رابطة استعطاف، أو استلطاف مع زعماء قريش"[٣٧].

لأن قضية العقيدة واضحة، لا مساومة عليها، فهي بعيدة كل البعد عن المساومات الرخيصة، أو الإغراءات الباطلة، يتضح هذا الموقف جليا من جواب الرسول عليه السلام على عتبة بن ربيعة، حين خيره بين الكف عن الدعوة، وان يكون له الملك، والجاه والمال... فرد عليه السلام قائلا:"ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالهم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي، أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم"[٣٨].

وتكررت مساومة المشركين لمحمد صلى الله عليه وسلم مرة أخرى، حينما اعترضه رجال من قريش، وهو يطوف عليه السلام، فقالوا:"يا محمد هلم، فلتعبد ما نعبد، ونعبد ما تعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه، كنت قد أخذت منه حظا، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه، كنا قد أخذنا منه حظا" فانزل الله قوله تعالى: {قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، ولا انتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، وانتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي ديني} [الكافرون:][٣٩].

"عرض كفار قريش على محمد صلى الله عليه وسلم خطة وسطا بينهم وبينه، وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم، مقابل أن يسجدوا هم لألهه! وأن يسكت عن عيب آلهتهم، وعبادتهم، وله فيهم،

---

[٣٧] – "الوفود في العهد المكي" لعلي الأسطل: ص: ٣٧.

[٣٨] – "السيرة النبوية" لابن هشام: ٣٦٢/١.

[٣٩] – تفسير الطبري: ٧٠٣/٢٤ و٧٠٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعليهم ما يشترط! ولعل اختلاط تصوراتهم، واعترافهم بالله، مع عبادة آلهة أخرى معه، لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم، وبين محمد صلى الله عليه وسلم قريبة، يمكن التفاهم عليها، بقسمة البلد بلدين، والالتقاء في منتصف الطريق مع بعض الترضيات الشخصية، ولحسم هذه الشبهة، وقطع الطريق على المحاولة، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نزلت هذه السورة بهذا الجزم، وبهذا التوكيد، وبهذا التكرار لتنهي كل قول، وتقطع كل مساومة، وتفرق نهائيا بين التوحيد والشرك، وتقيم المعالم الواضحة التي لا تقبل المساومة والجدل في قليل، ولا كثير"[٤٠].

وبذلك حسم الله عز وجل أمر هذه المساومة المضحكة بكلامه المحكم، "وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتبرأ من دين الكفار بالكلية فقال:"لا أعبد ما تعبدون" يعني من الأصنام، والأنداد، "ولا أنتم عابدون ما أعبد" وهو الله وحده، لا شريك له... ولا أعبد عبادتكم أي لا أسلكها، ولا أقتدي بها، وغنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه، ويرضاه، ... فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه"[٤١].

وقد جاء وفد آخر، بعد فشل الوفدين السابقين، يتكون من عبد الله بن أبي أمية، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن قيس، والعاص بن عامر[٤٢]، جاؤوا ليقدموا عرضا آخر، للتنازل عن بعض ما في القرآن، فطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم، أن يحذف من القرآن ما يغيظهم من ذم آلهتهم، وتسفيه عبادتهم، فأنزل الله جوابا حاسما لذلك العرض الرخيص، قال تعالى:{وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات، قال الذين لا يرجون لقاءنا، أئت بقرآن غير هذا، أو بدله، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي، إن اتبع إلا ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم}[يونس: ١٥].

---

٤٠ – "في ظلال القرآن" للسيد قطب: ٦/٣٩١.

٤١ – "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير: ٤/٥١٣: تفسير سورة الكافرين.

٤٢ – "أسباب النزول" للواحدي، ص: ٢٠٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبهذا الموقف الإيماني، الثابت، جسد النبي عليه السلام حقيقة صدق رسالته، وأنه فعلا رسول من الله إلى العالمين، كما أثبت أمرا مهما وهو: لا تنازل، ولا مساومة على العقيدة، أو الدين، فمهمته تقتضي تبليغ رسالة ربه للناس، دون أي تحريف أو تزوير.

وما يمكن أن نسجله من خلال سياسة المساومات مع الرسول عليه السلام ما يلي:

–أولا: أن سياسة المساومات، جاءت بعد فشل زعماء مكة الذريع في الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، وعجزهم التام عن كف الرسول عليه السلام عن الدعوة، وفشل جميع مخططاتهم السرية، والعلنية في خنق الدعوة الوليدة، ووأدها في مهدها، حتى لا تخرج إلى الناس.

– ثانيا: اتضح لكفار مكة أن سياسة التعذيب، والتنكيل، لم تؤت ثمارها، وإنما جاءت بنتائج عكسية، لما كانوا يتوقعون، فالإيذاء، والفتنة لم يزيدا المسلمين إلا إصرارا، وثباتا وعزما، على التمسك بالإسلام، والتعلق به، وبذلك كثر الوافدون الجدد على الإسلام، وأصبح أتباعه يزدادون عددا يوما بعد يوم.

– ثالثا: تغيير طاقم المفاوضات في كل مرة: عمدت قريش إلى تغيير المفاوضين، والمساومين للرسول عليه السلام في كل مرة، في محاولة واضحة للتأثير عليه، بتنويع العقول المفاوضة، وعدم تكرار نفس الوجوه كل مرة، لكن الرسول وصلى الله عليه وسلم ظل صامدا في كل محاولة، ولقن المساومين درسا عمليا في التمسك بالعقيدة الصحيحة، حيث لم يتنازل صلى الله عليه وسلم عن أية جزئية منها، مهما صغرت وظل عليه السلام يردد على مسامعهم أنه مجرد عبد يتبع ما يوحى إليه من الله عز وجل، وأن مهمته هي تبليغ الرسالة إليهم، فإن هم أطاعوه، سعدوا في الدنيا، والآخرة، وإن هم عصوه، فالله يحكم بينهم وبينه، بهزم الباطل، وإظهار الحق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

– **رابعا**: أن كفار قريش تدرجوا في التنازل من الأكبر إلى الأصغر، لاستمالة قلب محمد صلى الله عليه وسلم، والتأثير فيه، فما طلبه زعماء مكة من محمد صلى الله عليه وسلم في المرة الأولى أكبر بكثير مما طلبوه في المرات المتلاحقة، فكان سقف مطالبهم في المحاولة الأولى: أن يتخلى محمد صلى الله عليه وسلم عن الدعوة إلى الله مقابل الملك، والشرف، والجاه، والمال، ولكن لما رأوا رده الحاسم، وعزمه الصادق على أنه رسول الله، تنازلوا شيئا، فعرضوا عليه صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم عاما، وأن يعبدوا إلهه عاما آخر، فيصبحوا شركائه في هذا الأمر، فيصيبوا الخير أين كان؟؟ لكن نزل القرآن الكريم منهيا هذه المساومة المضحكة، فصدع عليه السلام بقوله تعالى: {لكم دينكم، ولي دين}[الكافرون: ٥] وبذلك تنازلوا درجة أخرى –لما رأوا من عزم محمد صلى الله عليه وسلم على التمسك بالعقيدة الصحيحة– فطلبوا منه عليه السلام، أن يحذف من القرآن، ما يعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، ويبطل عبادتهم للأصنام، فجاء جوابه عليه السلام حاسما –كما في كل مرة– أنه مجرد عبد اختاره الله، واصطفاه لتبليغ الرسالة، ولا طاقة له لما يطلبون.

وبهذه المواقف الثابتة، ظلت العقيدة صافية من كل الشوائب، الغريبة عنها، سواء في جوهرها أو في الوسائل الموصلة بها، وظل موقف محمد صلى الله عليه وسلم، واحدا وثابتا من جميع المساومات والإغراءات، مهما عظمت قيمتها أو كبر حجم إغرائها.

– **خامسا**: لا بأس بالجلوس مع غير المسلمين للتفاوض أو الحوار معهم، لكن المساومة على العقيدة، والدين خطوط حمراء، لا يمكن تجاوزها، أو تعديها. فكل مساومة أو إغراء يهدران مبدأ من مبادئ الإسلام، أو يسقطان ركنا من أركانه، أو يبطلان حكما من أحكامه، فهما باطلان، لا يمكن القبول بهما، أو العمل بمقتضاهما، والموقف منهما لا يقبل كثير تردد، أو تفكير، وإنما يجب إعلان الرفض الحاسم وقتئذ، والجهر بذلك، والتمسك بالحق والصبر عليه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

* المبحث الرابع: المقاومة السلمية للمسلمين والدفاع عن النفس عند الضرورة القصوى.

لقد كانت قريش تسعى جاهدة إلى القضاء على الإسلام، منعا لوصول نوره إلى الناس، خارج مكة، فلم تأل جهدا، ولم تذخر وسعا، في محاولة خنق الدعوة الوليدة، في مهدها. "فكانت العلاقة بين الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام من جانب، وبين المشركين، في مكة المكرمة: علاقة اضطهاد، وظلم، وإيذاء بالغ، ثم حرب ضروس، ومحاولة للقضاء التام، والتصفية، من قبل المشركين، على الإسلام وأهله، وطمس معالمه، فقد قتلوا بالتعذيب عددا من الصحابة الكرام، وحاولوا قتل الرسول عليه السلام، نفسه، مرات عديدة"[٤٣].

وكانت هذه الحرب الضروس، التي شنها كفار مكة، على السابقين الأولين، غير متكافئة العدد، والعدة، ولم يعترف فيها المشركون بأية مبادئ، أو أخلاق، كما عرفت عند سائر العرب في الجاهلية. وبذلك تخندق الرسول عليه السلام، والمسلمين معه، في خندق المقاومة السلمية، والدفاع عن الدين، والنفس، وقد أبدى الصحابة من صنوف المقاومة السلمية، ما أذهل قريشا، وزرع في نفوس زعمائها، الشك، والارتياب، من قدرتهم وعلى استئصال خضراء الإسلام، وهدم معالمه، والقضاء على أتباعه.

لم يقف المسلمون، مكتوفي الأيدي إزاء اضطهاد قريش، وتنكيلها، بكل من اعتنق الدين الجديد، فتحركوا وفق خطة واضحة المعالم، رسمها الرسول عليه السلام، وأمرهم بتنفيذها بدقة، وحكمة. واقتضت: مقاومتهم لعدوان المشركين بشكل سلمي. وبناءا على ذلك انشغل الصحابة بالدعوة إلى الله، وإبراز محاسن الإسلام، حيث كانوا يمضون إلى المجامع العامة، ويتواجدون حول الكعبة ويتصلون بالوافدين إلى مكة، يدعونهم إلى الإسلام، ويشرحون مضامينه، ويوضحون معالمه. ولكن كل ذلك ضمن

---

[٤٣] – "نحن والآخر" للدكتور علي قرة داغي: الكتاب الثالث من سلسلة "قضايا الأمة"، ص: ٦٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خطة، محددة، تقتضي عدم الاصطدام المباشر مع العدو، وعدم الوصول معه إلى معركة عنيفة، تقود إلى استعمال السلاح، أو الدخول معه في حرب مميتة.

"لم يكن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، جبناء، ولا أذلاء، بل كانوا يعانون من الضغط، والالتزام بعدم القتال، ما لا يعلمه إلا الله، فكانوا يعانون من الضغط على أعصابهم، والكبت على نفوسهم، ما يكون القتال معه، أهون بألف مرة عليهم"[٤٤]، فكان المسلمون يرغبون في الدفاع عن أنفسهم، ويبدو أن الموقف السلمي، أغاظ بعضهم، خاصة الشباب منهم، فقد أتى عبد الرحمان بن عوف، وأصحابه إلى النبي عليه السلام بمكة، فقالوا:"يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة، فقال صلى الله عليه وسلم:"إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا القوم"[٤٥].

فكان الرسول عليه السلام، يأمر صحابته بعدم رد العدوان، أو مقارعة القوة بالقوة، بل عليهم التحلي بالصبر، وشدة التحمل، ويمكن أن نبرز مقاصد هذا الموقف النبوي فيما يلي:

– **أولا**: إن فترة المرحلة المكية، كانت فترة تربية، وإعداد، وخير ما يتربى عليه المسلم: الصبر والانضباط، وتحمل الأذى في سبيل الله، فالصبر رأس المكارم، وقمة الأخلاق، "وقد وصف الله الصابرين بأوصاف مختلفة، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له، قال تعالى: {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا} [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى:{ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون}[النحل: ٩٦]"[٤٦]. فالصبر يعلم المسلم حسن العبادة، وحسن التصرف، وحسن اتخاذ المواقف السليمة، فلا يكون مندفعا، أو متهورا، بل صبورا، وحكيما.

---

[٤٤] – "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ١/١٢٤.

[٤٥] – السيرة النبوية" لعلي الصلابي: ١/١٦٢.

[٤٦] – "إحياء علوم الدين" للغزالي: ٤/٨٣: كتاب: الصبر والشكر: الكتاب الثاني من المنجيات.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

– **ثانيا:** إن المقاومة السليمة هي أنسب طريقة، وأنجع وسيلة، للحفاظ على حياة المسلمين، والإبقاء على الدعوة الجديدة، لأن القتال والمواجهة –في هذه الفترة الحرجة– إيذان بنشوب حرب لا تبقي، ولا تذر، ويكون الإسلام والمسلمون الطرف الخاسر فيها، بكل تأكيد، لاختلاف موازين القوى في العدد، والعدة، فحكمة الرسول عليه السلام، وتبصره، وحسن قراءته للواقع، جنب الإسلام، وأهله مصيرا مشؤوما، متمثلا في انتحار مبكر، جراء حرب لا هوادة فيها على الدعوة الجديدة وأتباعها.

– **ثالثا:** تعلم الصحابة، من القرآن الكريم، ومن مواقف النبي صلى الله عليه وسلم: فقه المصالح والمفاسد، وكيفية التعامل مع هذا الفقه، من خلال الواقع المعيش، وبذلك فهم الصحابة أن المصلحة إن أدت إلى مفسدة أعظم، تترك. وهكذا أصبحت ثمار تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، تؤتي أكلها، فأدركوا مقاصد، وحكم دعوته عليه السلام، لهم بالصبر، وضبط النفس، وتحمل الأذى في سبيل الله عز وجل.

وأمام ضراوة التعذيب، والتنكيل، الذي صبته قريش على أجساد المسلمين، خاصة المستضعفين منهم، كالعبيد، والأماء، سجلت كتب السير والتاريخ، حالات مقاومة، ودفاع عن النفس –وإن كانت قليلة، ومتفرقة– فقد ظهرت في هذه المرحلة حالات مقاومة فردية، كدفاع مشروع عن النفس، ممن كان يقدر على ذلك من الصحابة، كالذين كانت لهم منعة في قبيلتهم، التي تحميهم من رد فعل قريش[٤٧] ، أو ممن كان يتحمل جسده، ما ينزل به من العذاب[٤٨]، فلم يكن الرسول عليه السلام يأذن بذلك، إلا لمن وجد في نفسه القدرة على المقاومة الجسدية، أو كان ذا عصبية قبلية، تحميه من أن تمتد أيدي المشركين إليه بالسوء، فكانت أول مواجهة في مكة –حسب ابن هشام– من طرف، سعد بن أبي وقاص

---

[٤٧] – كأبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمان بن عوف، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.

[٤٨] – كبلال بن رباح، وصهيب الرومي، وخباب بن الأرث، وعبد الله بن مسعود... رضوان الله عليهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حيث: "كان في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحي بعير، فشجه، فكان أول دم هريق في الإسلام"[٤٩].

وكان أبو جهل الفاسق يغري بالمسلمين في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل أسلم، له شرف، ومنعة، أنبه، وأخزاه، وقال:"تركت دين أبيك، وهو خير منك، لنسفهن حلمك ولنفيلن [لنقبحن] رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجرا قال: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفا، ضربه، وأغرى به"[٥٠].

ولعل ما فعله عبد الله بن مسعود، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، عند إسلامهما، يؤكد ما أشرنا إليه من أن السمة الغالبة في هذه المرحلة هي: المقاومة السليمة، لكن مع تسجيل حالات دفاع عن النفس، فكان عبد الله بن مسعود، أول من جهر بالقرآن في مكة، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام إليه القوم يضربونه، وهو يقرأ، ويضرب مدافعا عن نفسه، حتى سقط مغشيا عليه. وحين جهر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإسلامه، في تحد واضح لزعماء قريش، فقاموا إليه يضربونه، "فمكث رضي الله عنه يقاتلهم، ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم"[٥١]. لكن أمر الدفاع عن النفس لم يكن على إطلاقه، فلم يكن يقدر على ذلك، إلا من كان ذا شكيمة قوية أو منعة في قومه، أما الضعفاء من المسلمين والإماء فكانوا يعذبون في سبيل الله، ورسول الله يثبتهم بالصبر ويدعو لهم، ويعدهم بالجنة، "فكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبابيه وأمه، وكانوا أهل بيت الإسلام إذا

---

[٤٩] – "السيرة النبوية" لابن هشام: ١/١٧١.

[٥٠] – "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١/٢٦١.

[٥١] – "الرحيق المختوم" لصفي الرحمان المباركفوري، ص: ١٢٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حميت الظهيرة يعذبوهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:"صبرا آل ياسر، موعدكم الجنة"[٥٢].

بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي محاولة منه لتخفيف العذاب النازل على المسلمين الأولين، أذن عليه السلام لبعض هؤلاء المستضعفين من مجاراة قريش في سب الدين الجديد حفاظا على أرواحهم، ووقاية لأنفسهم من الهلاك، والموت المحقق، تحت التعذيب، ومن ذلك ما روي عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما، حين كانوا يعذبونه بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره، تارة أخرى، وقالوا له:"لا نتركك حتى تسب محمدا، أو تقول في اللات والغرى خيرا" فوافقهم على ذلك مكرها، وجاء باكيا، معتذرا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد روي أن رسول الله عليه السلام قال لعمار –وهو يقص عليه ما لقيه– كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن الإيمان فقال صلى الله عليه وسلم:"إن عادوا، فعد" وفي ذلك نزل قوله تعالى:{من كفر بالله بعد إيمانه، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان}[النحل: ١٠٦][٥٣].

ومن وسائل المقاومة السلمية للمسلمين في هذه المرحلة: عتق رقاب العبيد، والإماء ممن اعتنقوا الإسلام، وانخلعوا عن دين الآباء والأجداد، حيث وضع أغنياء المسلمين أموالهم، لتحرير إخوانهم وأخواتهم ممن يعذبون وينكل بهم، كإجراء ضمن الخطة التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم لتخفيف معاناة السابقين الأولين، وقد أحرز قصب السبق في ذلك: أبو بكر الصديق رضي الله عنه "فكان إذا مر بأحد من الموالي، يعذب، يشتريه من مواليه، ويعتقه في سبيل الله، ومنهم: بلال وأمه حمامة، وعامر بن فهيرة، وأم عيس، وزنيرة، والنهدية وابنتها، وجارية لبني عدي، كان عمر يعذبها على الإسلام، قبل أن يسلم،

---

٥٢ – "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ١٠٧/٩ و١٠٨.

٥٣ – "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ١٠٧/٩، و"لباب النقول في أسباب النزول" للسيوطي، ص: ١٦٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حتى قال له أبوه: أبو قحافة:"يا بني، أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أعتقت قويا، جلدا، يمنعونك"، فقال أبو بكر:"إني أريد ما أريد"[٥٤] أي أريد الله عز وجل، قال: فيتحدث أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه، وفيما قال له أبوه:{فأما من أعطى، واتقى وصدق بالحسنى}[الليل: ٥ و٦] إلى قوله تعالى:{وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى}[الليل:١٩-٢١][٥٥].

فلم يكن موسرو المسلمين، حتى يلتقون بإخوانهم من الفقراء، والمستضعفين يرون أن واجبهم تجاههم هو: السلام وصالح الدعاء فحسب، بل كانوا يعلمون علم اليقين أن واجبهم عليهم هو إنقاذهم ببذل المال في سبيل عتقهم، وتحريرهم، وتخليصهم من الفتنة والأذى، وبذلك كان إنقاذ المستضعفين واجبا على المسلمين الأغنياء والموسرين.

وكان من معالم خطة الرسول صلى الله عليه وسلم السلمية: الإصرار على الدعوة والجهر بها، فمنذ أن اعتلت قدما محمد صلى الله عليه وسلم، جبل الصفا بمكة، جاهرا بدعوته، وحديث الإسلام وخبر الدعوة الجديدة في كل بيت، وفي كل ناد، وطريق، فسواء أسر النبي عليه السلام بدعوته، أو جهر بها، فهي محور حديث مجالس المشركين، وشغل يومهم، يظن زعماء مكة أن الدعوة الجديدة مخنوق نورها بمكة، فيفاجئون بأبي ذر الغفاري رضي الله عنه، يطلع عليهم عند الكعبة، ليهزأ بآلهتهم وقد آمن بالله ربا، وبمحمد صلى الله عليه رسولا. ويعتقد الواهمون من المشركين من أن التعذيب كبت أصوات المسلمين، وأخرسها، فيقرع أسماعهم صوت عبد الله بن مسعود يصدح بالقرآن بين ظهرانيهم، ويتمطون يوما، متكاسلين، وقد اطمأنوا أن الدعوة حوصرت في البيوت، فيستيقظون على أقدام المسلمين تدق

---

[٥٤] – "الفصول في سيرة الرسول" لابن كثير، ص: ١٠٠.

[٥٥] – "السيرة النبوية" لابن هشام: ١٨٦/١، و"لباب النقول في أسباب النزول" للسيوطي: ص: ٢٠١، في سبب نزول قوله تعالى:{فأما من أعطى، واتقى، وصدق بالحسنى..} من سورة الليل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

طرقات مكة في صفين على احدهما حمزة، وعلى الآخر عمر بن الخطاب، وهكذا حرص المسلمون طوال هذه الفترة ألا تنسى دعوتهم، ولا يغيب ذكرها عن مسامع المشركين، وأعينهم.

وبهذا الإصرار على الدعوة، ومداومة الجهر بها، فقد استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم، تحييد بعض الشخصيات والبطون، من محاربة الإسلام والمسلمين. فالكافرون ليسوا سواءا! فأبو جهل الذي يؤذي المسلمين بالقول، والفعل، ليس كابن الذغنة، الذي يجير أبا بكر الصديق ليعبد ربه[٥٦]، وأبو طالب الذي وفر الحماية المعنوية، والمادية للرسول عليه السلام لتبليغ رسالة ربه إلى الناس، ليس كأبو لهب الذي نزل القرآن بعذابه، وتحديد مصيره يوم القيامة[٥٧].

فقد جلس عتبة بن ربيعة سيد بني أمية، إلى النبي عليه السلام ليفاوضه، فما قاطعه عليه السلام ولا استعجله، إنما استمع إليه بصدر رحب، حتى إذا انتهى من حديثه، سأله صلى الله عليه وسلم برفق وأدب:"أقد فرغت يا أبا الوليد؟ فأجابه عتبة: نعم، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ من سورة فصلت، حتى إذا أتى موضع السجدة، فسجد، فقام عتبة إلى قريش ناصحا، قائلا:"خلوا بني هذا الرجل، وبين ما هو فيه..."[٥٨] إن عتبة لم يؤمن، ولكن الرسول عليه السلام استطاع بجواره ان يحيده هو، وبني أمية، أكبر تجمع عربي بعد بني مخزوم، وبذلك فتت النبي عليه السلام تكتل صف المشركين، وهو نصر عظيم، ولاشك.

---

[٥٦] – انظر قصة جوار ابن الدغنة لأبي بكر الصديق في:"إمتاع الاسماع" للمقريزي: ٣١٦/٨ و٣١٧، وفي:"زاد المعاد" لأبي القيم الجوزية: ٤٦/٢ و٤٧، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٤١٩/١.

[٥٧] – انظر قصة أبي لهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في:"السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١٩٨/١، و"لباب النقول في أسباب النزول" للسيوطي: ص: ٣١١ في نزول قوله تعالى: {تبت يدا أبي لهب، وتب} [المسد: ١].

[٥٨] – انظر القصة كاملة في:"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٦٩/١، و"الروض الأنف" للسهيلي: ٤٠/٢ بعنوان "حكيم بن أمية ينهى قومه عن عداوة الرسول".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبالرغم من المقاومة السلمية للمسلمين، "أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سنتين من الجهر بالدعوة، ألا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء، الذي ينزل بهم ليل نهار، وأن الزعامة الوثنية ماضية في عنفها، واضطهادها، وتعذيبها لهم، مصممة على استخدام أي أسلوب أي أسلوب لوقف الدعوة عند حدها، وخنقها، وهي بعد في المهد، ورأى أن يمنح المعذبين، المضطهدين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم، ويستعيدون قواهم النفسية، والجسدية، ويعودون ثانية إلى ساحة الصراع، وهم أقدر وأصلب"[٥٩]، فأشار عليهم صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة، "فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد"[٦٠]. حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه، فاستجاب المسلمون لذلك، فهاجروا متسللين، من مكة صوب الساحل، فأقلتهم سفينتان، كانتا متجهتين صوب الجنوب، فخرج نفر من قريش في آثارهم، لكنهم عادوا بخفي حنين.

إن البقاء بين براثن الشرك، حتى تتمكن الوثنية من عبادة المسلمين، عملية خرقاء، لا معنى لها، لذلك بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يبحث عن مكان آمن للدعوة، وقاعدة جديدة للانطلاق، غير مكة، التي حاصر زعماؤها الدين الجديد، ومنعوا الرسول عليه السلام من تبليغ دعوة ربه للناس.

فكانت الهجرة من مكة آخر الحلول السلمية في خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي رسمها للوجود الإسلامي في مكة، فلما ضاقت الأرض على المسلمين، بما رحبت، واشتد عليهم الأذى، أشار عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج من مكة، والهجرة إلى الحبشة، لعل الله يجعل من أرضها تربة صالحة للحفاظ على بذرة الإسلام، حتى يشتد عودها، وتؤتي ثمارها، فكان الأمر، كما

---

[٥٩] – "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٦٤.

[٦٠] – "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١/٢١٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خطط رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاش المسلمون في الحبشة آمنين، مطمئنين، في جوار ملك عادل، وطاب لهم المقام عنده، حتى بعد قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

* المبحث الخامس: الاستفادة من قوانين المجتمع الكافر: [مثلا قوانين: الحماية، والجوار، والتعصب للقبيلة].

تعارف أهل الجاهلية على عدة أعراف، كانت بمثابة قوانين تنظم علاقة بعضهم ببعض، وعلاقتهم بغيرهم من القبائل، ومن هذه القوانين: قانون الحماية، والجوار، "ولقد كان المجتمع الجاهلي يقيم وزنا كبيرا لهذا القانون، وهو حماية القوي الضعيف، فإذا دخل الضعيف في جوار القوي، فإنه يتمتع بحمايته التامة، ويمنع أي اعتداء يقع عليه، ويعطيه حرية التحرك، والتفكير، ولا يستطيع العدو، أن ينال من هذا المستجير"[٦١]. ويعد أي خرق أو مس بقانون الحماية، والجوار، بمثابة إعلان حرب بين الفريقين، ومن أجل هذا، كان الذي يعلن الإجارة، لابد أن يكون عزيزا، منيعا في قومه، قادرا على الحماية، ومتوقعا لكل المفاجآت الممكنة.

وقد استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسلمين معه من هذا القانون الجاهلي، ولم ير عليه السلام أي حرج في استغلال قانون الحماية والجوار لصالحه، مادام لا يتعارض مع أي مبدأ من مبادئ الإسلام، أو لا ينقض أية قاعدة من قواعد الدين. وبفضل هذه الحماية، والحوار تمكن الرسول عليه الصلاة و السلام في المرحلة المكية من أن يسمع صوته إلى الناس، جاهرا بالدعوة، و متمتعا بقدر لا بأس به من الحماية من أذى المشركين، بخلاف بعض المسلمين المستضعفين، الذين نالوا قسطا وافرا من التعذيب، و التنكيل، لفقدان من يحميهم، و يحول بينهم و بين زعماء مكة المتغطرسين.

لقد عاشت الدعوة الإسلامية زمنا طويلا في مجتمع كافر، تحكمه قوانين الشرك، لكن المسلمين، وهم يحاولون تبليغ الإسلام لغيرهم، ما كانوا ليسألوا أنفسهم حين يجدون قانونا من قوانين الكفر، من وضع هذا القانون؟ و إنما كانوا يستبدلون بهذا السؤال: سؤالين مهمين: هل يناقض هذا القانون شريعة

---

[٦١] -- "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ٦٨/١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإسلام؟ وهل يفيدني هذا القانون في شيء؟ فإذا كانت الإجابة الأولى بلا والثانية بنعم، استفادوا منه، واستغلوه لصالحهم دون حرج.

لقد كانت الإجارة الأولى في المجتمع المكي، هي: إجارة أبي طالب لمحمد رسول الله صلى الله عليه و سلم، يقول ابن اسحاق :"وحدب على رسول الله صلى الله عليه عمه أبو طالب، و منعه، وقام دونه، و مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهر لأمره، لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعتبهم من شيء، أنكروه عليه من فراقهم، وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب، قد حدب عليه، و قام دونه، فلم يسلمه لهم، مشى رجال إلى أبي طالب، فقالوا:"يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، و عاب ديننا، و سفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا و إما أن تخلي بيننا، وبينه"؟فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا، وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه، ومضى الرسول صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه، يظهر دين الله، و يدعوا إليه، ثم شري الأمر بينه، وبينهم، حتى تباعد الرجال، وتضاغنوا،وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها،فتنادموا فيه، وحض بعضهم بعضا عليه"[٦٢].

ولما رأت قريش أن أبا طالب لم ينه محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكف عن الدعوة، مشوا إليه مرة ثانية، ولكن محذرين، ومتوعدين، "فبعث أبو طالب إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فقال له:"يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي: كذا وكذا –للذي كانوا قالوا له – فأبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء، أنه خاذله، ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره

---

[٦٢] –"السيرة النبوية" لابن هشام:١/٢٨٤ و"الروض الأنف" للسهيلي:٢/٣ و٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الله، او أهلك فيه، ما تركته"، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكى، ثم قام، فلما ولى، ناداه أبو طالب فقال:"أقبل يا ابن أخي"، فأقبل عليه رسول الله فقال:"اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا"[٦٣].

ونلاحظ من هذه الإجارة ما يلي:

– **أولا**: إن قريشا كانت تعترف بقانون الإجارة، والحماية، وتطبقه على أرض الواقع، لذا حاولت مع أبي طالب بالرفق، أن يدعو ابن أخيه للكف عن الدعوة للدين الجديد، لكونها تعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم في جوار، وحماية أبي طالب، لكنها فشلت في المحاولة الأولى.

– **ثانيا**: لجأت قريش إلى التهديد، والوعيد، في المرة الثانية، ونجحت في التأثير على أعصاب أبي طالب، مما اضطر هذا الأخير إلى دعوة ابن أخيه، إلى الكف عن الدعوة، وألا يحمله من الأمر ما لا يطيق، فتبادر إلى ذهن محمد صلى الله عليه وسلم، أن عمه قد تخلى عن حمايته له، فثبت عليه السلام على الحق، مهما كلف الأمر، فصمم على أمر الدعوة إلى الله، ولو دون حماية، ولا جوار أبي طالب. فنجح صلى الله عليه وسلم في التأثير على أبي طالب، أكثر مما فعلت قريش، ففاز ثانية عليه السلام بحماية، وجوار أبي طالب له ولدعوته. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حكيما، في الاستفادة من الجوار، والحماية، فاجتهد عليه السلام في الدعوة لله، وكسب أتباع جدد لدعوته الوليدة، فانتشر الإسلام في دروب مكة، وأزقتها وأصبح حديث كل بيت، وكل مجلس، "وهذا لا يعني أن الجاهلية قد وفت بعهدها، وذمتها وحفظت جوار أبي طالب، خلال هذه السنوات العشر، ولكن من المؤكد أنها أخفقت

---

٦٣ – "إمتاع الاسماع" للمقريزي: ٩٩/٤، و"الروض الأنف" للسهيلي: ٧/٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

في محاولاتها خرق هذا العهد، وكان لحماية أبي طالب أثر فعال، حال دون وصول الأذى الكبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم"[٦٤].

ولا غرو أن يكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم استفادته من قانون الحماية، والجوار، فبعدما اشتد عليه الخناق في مكة، وحوصرت دعوته، ومنعته قريش من تبليغ دعوة ربه إلى الناس، ووقفت سدا منيعا في وصول الإسلام إلى الآخرين، "بدأ عليه السلام يبحث عن منعة، ومكان آمن للدعوة خارج مكة، فقرر التوجه إلى الطائف، في شوال سنة عشر من النبوة، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق، دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها"[٦٥]. "فوصل صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وأقام بين أهلها عشرة أيام، يدعوهم إلى الإسلام ولا يجيبه أحد، بل ردوا عليه ردا منكرا، حتى أغروا سفاءهم، وعبيدهم، يسبونه، ويصيحون به، ويرمونه بالحجارة"[٦٦] فكان هذا اليوم من أشد الأيام حزنا وأسى على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، خلال مسيرته الدعوية"[٦٧].

وبعد هذا النصب الشديد، عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة، "حتى إذا دنا منها، مكث بحراء، وبعث رجلا من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال:"أنا حليف، والحليف لا يجير"، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل:"إن بني عامر لا تجير على بني كعب"، فبعث إلى المطعم

---

[٦٤] – "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ٧١/١.

[٦٥] – انظر تفاصيل هجرته عليه السلام إلى الطائف في:"السيرة النبوية" لابن هشام: ٤١٩/١، و"إمتاع الاسماع" للمقريزي: ١٠٥/٩، و"زاد المعاد" لابن القيم الجوزية: ٤٦/٢.

[٦٦] – "الرحيق المختوم" لصفي الرحمان المباركفوري، ص: ١٤٩.

[٦٧] – دليل ذلك، ما رواه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق: باب رقم ٠٧: إذا قال أحدكم آمين، رقم الحديث: ٣٢٣١. وما رواه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير: باب رقم: ٣٩ ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى والمشركين والمافقين رقم الحديث: ٤٦٧١: من أن عائشة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم:"يا رسول الله هل أتى عليك يوم، كان أشد من يوم أحد؟" فقال:"لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت...".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بن عدي، فقال المطعم:"نعم، ثم تسلح، ودعا بنيه وقومه، فقال:"إلبسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمدا، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أن أدخل، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه زيد بن حارثة، حتى إذا انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته، فنادى:"يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدا، فلا يهجه احد منكم"، وانتهى إلى الركن، فأسلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي، وولده محدقون به بالسلاح، حتى دخل بيته"، وقيل أن أبا جهل سأل مطعما:"أمجير أنت، أم متابع [مسلم]؟ قال:"بل مجير" فقال:"قد أجرنا من أجرت"[٦٨].

نظرا لدور أبي طالب في حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذوذ عن دعوته، فقد حزن عليه السلام حزنا شديدا لموته، ألم يكن أبو طالب الحضن الذي يحتمي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من هجمات زعماء مكة؟ ألم يسخر جاهه، وشرفه، وسلطانه في الدفاع عن ابن أخيه، وحمايته؟ ألم يقف سدا منيعا في وجه الوثنية كلما امتد أيديها بالسوء إلى محمد صلى الله عليه وسلم؟ وقد أكد عليه السلام هذه الحقيقة قائلا:"ما زالت قريش كاعين عني حتى مات أبو طالب"[٦٩].

أما أبو طالب، فإن المرء يحار في أمره، فبقدر ما ينحني إعجابا لنبله في كفالة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم لبطولته في الدفاع عنه، حين نبئ، وحين صدع بأمر ربه، وأنذر عشيرته الأقربين، إنه بقدر ذلك، يستغرب المصير الذي ختم حياته، وجعله يصرح قبل موته، أنه على ملة الأشياخ من أجداده[٧٠] إن أبا طالب لعب دورا محوريا في حماية محمد صلى الله عليه وسلم، ودعوته، لكن بعد وفاته، بقي عليه السلام وحيدا تتربصه أيدي مشركي قريش من كل جانب، فامتدت إليه بالسوء، أكثر من أي وقت

---

[٦٨] – "إمتاع الاسماع" للمقريزي: ٩/١٠٥ و١٠٦.

[٦٩] – "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١/٢٧٠.

[٧٠] – "فقه السيرة" للغزالي، ص: ١٢٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مضى، فها هو عليه السلام يطلب الإجارة لدخول مكة، بعدما خرج منها إلى الطائف، يعرض الإسلام على أهلها، فأجاره المطعم بن عدي، وقام دونه، حتى دخل عليه السلام إلى مكة، وظل صلى الله عليه وسلم يحفظ هذا الصنيع، للمطعم بن عدي، حيث قال عليه السلام في أسرى بدر:"لو كان المطعم بن عدي حيا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له"[٧١].

ومن صور الجوار الرائعة، في العصر المكي، ما فعله ابن الدغنة، حينما أجار أبا بكر رضي الله عنه[٧٢]. فلما اشتد البلاء على الصحابة، وناصب كفار قريش العداوة، والإيذاء لهم، خرج أبو بكر رضي الله عنه مهاجرا، حتى بلغ برك الغمدان، لقيه ابن الدغنة، وهو سيد "القارة"، فقال:"أين تريد يا أبا بكر؟ فقال له أبو بكر:"أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض، فاعبد ربي". فقال ابن الذغنة:"إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج، ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع، واعبد ربك في بلدك". فرجع أبو بكر مع ابن الدغنة، الذي صاح في قريش، أنه جار لأبي بكر، فلم تنكر قريش هذا الجوار، وقالوا لابن الدغنة:"مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن، فإنا نخشى أن يفتن نسائنا، وأبنائنا". ثم ما لبث أن رد أبو بكر رضي الله عنه هذا الجوار، لما جهر بعبادته، فخيره ابن الدغنة بين الكف عن ذلك أو رد جواره، فقال له أبو بكر رضي الله عنه:"فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله". وقد استفاد مهاجرو الحبشة، بعد رجوعهم إلى مكة، بعدما بلغهم خبر إيمان قريش بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، من قانون الجوار والحماية، فدخل كل واحد منهم في جوار أحد المشركين، يقول ابن اسحاق:"فلما بلغ الخبر إلى الحبشة، من سجود أهل مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقبلوا،

---

[٧١] – أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب رقم: ٥٧: فرض الخمس، باب رقم:١٦: ما من النبي على الأسارى من غير أن يخمس رقم الحديث: ٣١٣٩: ٥٥٧/٢.

[٧٢] – "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ٣١٦/٨، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٨/٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فلما دنوا من مكة، بلغهم الأمر، فثقل عليهم أن يرجعوا إلى أرض الحبشة، وتخوفوا أن يدخلوا مكة بغير جوار، فمكثوا على ذلك حتى دخل كل رجل منهم بجوار من بعض أهل مكة. وقدم عثمان بن مظعون بجوار من الوليد بن المغيرة، وأبو سلمة بن عبد الأسد بجوار من أبي طالب، وكان خاله"[٧٣].

ونخلص من هذه النماذج للإجارة إلى "أن الاستفادة من قوانين الجاهلية، أمر مشروع، إن كان فيه مصلحة للدعوة، وليس هذا طعنا في الدين، وليس احتكاما لغير شريعة الله، كما يدور بخلد بعض المتحمسين"[٧٤].

إن الإسلام الذي جاء بالبراءة من الكفار، لا يمنع عقد الأحلاف معهم أو الدخول تحت حمايتهم، إن كان في ذلك مصلحة للإسلام أو المسلمين، قال تعالى:{لا يتخذ المومنون الكافرين أولياء من دون المومنين، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة}[آل عمران: ٢٨] قال أبو بكر بن العربي: في قوله تعالى:{إلا أن تتقوا منهم تقاة} :"فيه قولان: أحدهما: إلا أن تخافوا منهم، فإن خفتم منهم فساعدوهم، ووالوهم، وقولوا ما يصرف عنكم من شرهم، وأذاهم بظاهر منكم لا باعتقاد، يبين ذلك قوله تعالى:{إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان}[النحل: ١٠٦][٧٥]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:"فمن كان من المؤمنين بأرض، هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر، والصفح، والعفو عمن يؤذي الله، ورسوله، من الذين أوتوا الكتاب والمشركين، وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر، الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[٧٦].

---

[٧٣] – "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٢١٨/١.

[٧٤] – "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ٧٣/١.

[٧٥] – "أحكام القرآن" لابن العربي: ٢٩٢/١، القسم الأول: سورة آل عمران.

[٧٦] – "الصارم المسلول على شاتم الرسول" لابن تيمية: ٢٢٦/١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبناءا على ما تقدم، فإنه يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، ويستفيدوا من جوارهم، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، أو كان في مصلحة الإسلام والمسلمين، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي، الذي كان نصرانيا عندئذ، ولكنه أسلم بعد ذلك[٧٧]، أو كان مشركا، كإجازة أبي طالب لمحمد صلى الله عليه وسلم، وابن الدغنة لأبي بكر، والمطعم بن عدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم...

وقد راعى الرسول صلى الله عليه وسلم في الاستفادة من قانون الجوار والحماية، مصلحة الإسلام، والحفاظ على الثلة المؤمنة والإبقاء على حياتها، فالبقاء بين براثن الكفر، حتى يبيد أهل الشرك، الإسلام والمسلمين، أمر غير مقبول، لذلك أمر عليه السلام المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، مع كونها دولة نصرانية، لما في ذلك من مصلحة المسلمين، وتخفيف الأذى والفتنة عنهم، قال العلامة عبد الرحمان السعدي:"بلاد الكفر نوعان: بلاد حرب واضطهاد، وبلاد عهد وهدنة وأمن، ويدل على هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن لأصحابه أن يهاجروا من مكة حيث كانت بلاد كفر واضطهاد وأذية وفتنة للمؤمنين، إلى بلاد الحبشة، وهي بلاد كفر، ولكنها بلاد أمن واطمئنان، وهي أخف بكثير من بلاد الفتنة، والشر القليل أهون من الشر الكثير، ولهذا تمكن الصحابة من إظهار دينهم فيها"[٧٨].

ودخول المسلم في جوار، وحماية غير المسلم، ليس على إطلاقه، بل هو "مشروط –بحكم البداهة – بأن لا يستلزم مثل هذه الحماية، إضرارا بالدعوة الإسلامية، أو تغييرا لبعض أحكام الدين، أو

---

[٧٧] – والدليل على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى عليه يوم وفاته، انظر صحيح البخاري: كتاب ٢٣: الجنائز، باب رقم ٦٤: التكبير على الجنازة أربعا: وفيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات" رقم الحديث: ١٣٣٣، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على أصحمة النجاشي، فكبر أربعا" رقم الحديث: ١٣٣٤.

[٧٨] – "الفتاوى السعدية" لعبد الرحمان السعدي، ص: ٩٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

سكوتا على اقتراف بعض المحرمات، وإلا لم يجز للمسلم الدخول فيها"[٧٩]. والدليل على ذلك: مواقف النبي صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه، حينما ردوا الجوار على من أجارهم، حينما تعارضت هذه الحماية مع أحكام الدين وتشريعاته، فمحمد صلى الله عليه وسلم ظل متمتعا بحماية أبي طالب، لسنوات خلت، لكن حينما طالبه أبو طالب بالكف عن الدعوة وعدم سب آلهة المشركين، وتسفيه أحلامهم، وأن يبقي على نفسه، ولا يحمله من الأمر ما لا يطيق، فقد وطن النبي عليه السلام نفسه للخروج من حماية، وجوار أبي طالب، وأبى أن يكف عن الدعوة، أو أن يسكت عن شيء من تبليغ الدين، وبيانه إلى الناس[٨٠]. كما رد أبو بكر رضي الله عنه جوار سيد القارة: ابن الدغنة، ورضي بجوار الله عز وجل، حينما طالبه بعدم الجهر بالصلاة والعبادة، فرد عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه قائلا، ورافضا لإجارة تمنعه من أن يؤدي شعائر الإسلام بجهر وحرية،:"فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل"[٨١].

ورد عثمان بن مظعون جوار الوليد بن المغيرة، لما رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذبون، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد، فقال:"والله، إن غدوي، ورواحي بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء، والأذى في الله ما لا يصيبني، لنقص كبير في نفسي"[٨٢]، فرد رضي الله عنه جوار الوليد بن المغيرة لما علمه، أن الابتلاء سنة من سنن الله في الكون، ولابد أن يحظى بنصيبه من البلاء في سبيل الله.

---

[٧٩] – "فقه السيرة" للبوطي، ص: ١٤٣.

[٨٠] – انظر القصة كاملة:"امتاع الاسماع" للمقريزي: ٩٩/٤، و"الروض الأنف" للسهيلي: ٣/٢و٤.

[٨١] – "امتاع الاسماع" للمقريزي: ٣١٦/٨ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٨/٢.

[٨٢] – "السيرة النبوية" لابن هشام: ١٤/٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصحابه من قانون آخر، كان له اعتبار كبير في الجاهلية وهو:"العصبية القبلية"، حيث كانت القبيلة عند العرب، تمثل الحماية والوقاية، وكان التعصب إليها أمرا محمودا بل واجبا في كثير من الأحيان، كالثأر لمقتل أحد أفرادها، أو رد العدوان عليها، أو دفاعا عن شرف بناتها، ونسائها.

لقد كانت الحياة العربية قبل الإسلام، تقوم أساسا على "وحدة والقبيلة"، فكان انتماء العربي الجاهلي انتماءا قبليا، حيث تعد القبيلة:"وحدة اجتماعية وسياسية، يجمعها العرق، والدم وهي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد وينحدرون من أب واحد، والرابط الذي يجمع أفراد تلك الجماعة هو الشعور بالانتماء إلى القبيلة"[٨٣]. وهذا الشعور يسمى "بالعصبية" وهي:"النعرة على ذوي القربي، وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم تهلكة، وتكون العصبية بين أهل النسب الواضح، ومن صاهرهم أي تزوج من نساء منهم، أو تزوجوا هم من نسائه، أو ينتسب إليهم بالولاء أو الحلف"[٨٤].

وإذا استقرأنا أحوال المجتمع العربي في الجاهلية، وجدناه مجتمعا قبائليا، مفككا، ينقسم إلى وحدات متعددة، قائمة بذاتها، تمثلها القبائل المختلفة، "وكانت العصبية القبلية تقضي على فكرة الترابط السياسي، حيث كان يعاب على العرب الجاهليين: افتقاد النزعة أو الشعور بالقومية الشاملة، والسبب في ذلك: أن وعيهم السياسي كان ضعيفا، محدودا لا يتجاوز القبيلة أو القبائل المنتمية إلى الجد المشترك"[٨٥].

---

[٨٣] – "دور الرسول في تحضر العرب" محمد مسعد ياقوت، ص: ٠٣ وما بعدها.

[٨٤] – "المقدمة" لابن خلدون، ص: ٥٦.

[٨٥] – "دراسات في تاريخ العرب" للدكتور عمر فروخ، ص: ٥٧٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن رابطة العصبية عند العرب في الجاهلية هي: شعور التماسك، والتضامن، والاندماج فيما بينهم، وهي على هذا النحو: مصدر القوة السياسية، والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة، وتعادل في وقتنا الحاضر: الشعور القومي عند شعب من الشعوب[٨٦].

فالقبيلة عند العرب: دولة صغيرة، وبفضل عصبية أفرادها، أمكن لها أن تدافع عن كيانها، ووجودها حيث كانت حياة القبائل حياة صراع دائم، والصراع هجوم ودفاع، "وكانت العصبية تستلزم من أبناء القبيلة الواحدة: وجوب تحمل التبعة، والقيام بواجبها، وتلبية ندائها، فهي إذن مسؤولية جماعية، فإذا قتل أحد أفرادها، فعلى القبيلة تقع تبعة قتل القاتل، باعتبار أن الدم لا يغسله إلا الدم، كما يقع على عاتقها دفع الدية، إن عجز القاتل، أو أهله عن دفعها، ومن هنا خضع الإنسان العربي إلى قانون القبيلة، فصار واجب عليه، أن يضع نفسه تحت إمرة القبيلة"[٨٧].

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك هذا الواقع جيدا، لذا كانت القبيلة ملاذه الآمن، وحصنه الحصين، كلما اشتدت عليه الشدائد، وضاق عليه الخناق، وقد لعبت القبيلة دورا محوريا في حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذوذ عنه، وكان زعيم بني هاشم، وبني عبد المطلب مهموما بأمر ابن أخيه، ومتخوفا عليه من تنامي وتيرة العداء ضده من زعماء قريش، فبعد جهر محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة، تغيرت مجرى الظروف في مكة، حيث كثر أتباع الدعوة الجديدة،ة ولم يعد أمر الانتساب إليها، مقتصرا على العبيد والأماء، بل وزحف الإسلام برفق ليدخل إلى أعز بيوت مكة، فأشهر خير شبابها ورجالها الإسلام، وفشلت الوثنية فشلا ذريعا في خنق الدعوة، ووأدها، وبذلك أصبحت عقول مشركي مكة تفكر في الإجهاز على رأس الدعوة الإسلامية، بل وجهرت أصواتهم

---

٨٦ – "تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام" للدكتور السيد ع العزيز سالم، ص: ٣٥٩.

٨٧ – "رؤية العالم عند الجاهليين" للدكتور ثناء أنس الوجود، ص: ٣٦ و٣٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بذلك، إن قتل محمد صلى الله عليه وسلم يعني إطلاق رصاصة الرحمة على الدين الجديد، والإستراحة من همه نهائيا.

كان أبو طالب يتأمل هذه الأحداث، ويدرس حيثياتها، وينزعج من نتائجها، فالمشركون فاوضوه على أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وهددوه بالمنازلة، ثم ساوموه على قتل ابن أخيه، وبلغ إلى مسمعه ما يلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى... كان أبو طالب يتدبر بعمق هذه الوقائع، ويشم منها رائحة شر يرجف له فؤاده، ويتقن أن المشركين عازمون على إخفار ذمته، مصممون على قتل ابن أخيه، لذلك "لما رأى تآلب قريش على ابن أخيه، قام في أهل بيته من بني هاشم، وبني عبد المطلب، ولدي عبد مناف، ودعاهم إلى ما هو عليه، من منع ابن أخيه، والقيام دونه، فأجابوه إلى ذلك، مسلمهم وكافرهم، حمية للجوار العربي، إلا ما كان من أخيه: أبي لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش"[٨٨] .

[٨٨] – "الرحيق المختوم" لصفي الرحمان المباركفوري، ص: ١٢٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"فكان الدافع إلى تلك الحماية: العصبية ولا شيء غير العصبية، فأنفة بني هاشم، وبني عبد المطلب وعزة أنفسهم دفعتهم إلى الذوذ عن حياة ابن عم لهم، إذا طالتها يد غريب بالسوء، والحمية الجاهلية إذ ترفع ذوي القرابة إلى مثل هذا التعصب، لا تنظر إلى مبدأ، ولا تتأثر في ذلك بحق، أو باطل"[٨٩]. والدليل على ذلك أن بني هاشم، وبني عبد المطلب آثروا أن يجمعوا في صدورهم، بين رغبتين متناقضتين[٩٠]:

– **الأولى**: البقاء على الشرك والكفر، ثم الاستكبار على الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

– **الثانية**: الانصياع إلى الحمية والمبادرة إلى حماية محمد صلى الله عليه وسلم، من بطشة الغريب وظلمه، عصبية وليس اقتناعا بدعوته عليه السلام.

لقد أقدم أبو طالب على "خطوة حاسمة، حيث دعا بين هاشم، وبني عبد المطلب ليحملوا مسؤولياتهم كاملة في حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن موقع زعامته لبني هاشم، وبني عبد المطلب، استجاب له الجميع لذلك، فحملوا سلاحهم من منطق العزة القبلية، والأنفة العشائرية"[٩١].

لقد دخل بنو هاشم، وبنو عبد المطلب –مسلمهم وكافرهم– في حلف دفاع مشترك عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم حمية وعصبية، لا إيمانا واقتناعا، وقبل عليه السلام هذه الحماية، واستغلها لصالح الإسلام والمسلمين. عندئذ أيقن مشركو مكة أن التعرض لشخص محمد صلى الله عليه وسلم بالإيذاء أو القتل، سيؤدي إلى حمامات دم تباد خلالها معظم بطون قريش، فصرفوا أنظارهم وأقنعوا أنفسهم بعدم جدوى هذه الفكرة، ومدى شؤمها على أحوال مكة وأوضاعها، فقرروا معاقبة القبيلة

---

[٨٩] – "فقه السيرة" للبوطي، ص: ١٣٤.

[٩٠] – "فقه السيرة" للبوطي، ص: ١٣٣ بتصرف.

[٩١] – "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ٧٣/١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بأسرها، "فاجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم، وبني عبد المطلب: ألا يناكحوهم ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم، ولا يبتاعون منهم، فكتبوا صحيفة في ذلك.. وعلقوها بالكعبة"[٩٢] فكانت سياسة "المقاطعة العامة" لعصبية الرسول صلى الله عليه وسلم، كعقاب جماعي من طرف زعماء مكة لبني هاشم، وبني عبد المطلب لعدم تسليميهم محمدا صلى الله عليه وسلم.

ولكن إن حماية القبيلة للرسول صلى الله عليه وسلم، والذوذ عن دعوته، لن تستمر طويلا، فقد توفي أبو طالب فخلفه على الزعامة القبلية "أبو لهب" وهو من أشد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكثرهم حقدا على الإسلام والمسلمين، فغير "الزعيم الجديد" خطة القبيلة، واستراتيجيتها نحو الدعوة الإسلامية، فكان أول قرار وقعه هو: تخلي بني هاشم، وبني عبد المطلب عن حماية ونصرة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته، وتأكد ذلك جليا، عند رجوعه عليه السلام من الطائف، حيث لم يتجرأ أحد من قبيلته على جواره، إلا ما كان من المطعم بن عدي، فدخل صلى الله عليه وسلم مكة في جواره.

لن ينكر أحد دور أبي طالب في حماية حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذوذ عن دعوته، لكن ما الحكمة في أن يجعل الله باستلاب حياته، قبل أن يشتد عود المسلمين، ويقوى؟ وقبل أن يؤسس ابن أخيه دولة الإسلام؟

قضى الله ذلك، لمصلحة الإسلام، وتربية المسلمين على حقائق مهمة، منها:

– **أولا**: إخراس ألسنة المبطلين، الذين يحاولون إدخال الريبة في القلوب والشك في النفوس، بزعمهم من أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، قد شاركه فيها أبو طالب، فإليه يرجع الفضل في حمايته والدفاع عن دعوته، حتى تمكن عليه السلام من إقامة دولة الإسلام، لذلك ليس من قبيل

---

[٩٢] – "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١٩٨/١، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٣/٢ وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المصادفة أن يولد رسول الله يتيما ثم لا يلبث أن يفقد أمه ثم جده ثم عمه حتى لا يتوهم المتوهمون أن رسالته عليه السلام، كانت بإرشاد وتوجيه ورعاية جده أو عمه، "وهكذا أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيما، تتولاه عناية الله وحدها، بعيدا عن الذراع التي تمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به النفس إلى مجد المال والجاه. وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا"[٩٣].

– **ثانيا:** تربية المسلمين على العقيدة الصحيحة، وحسن الظن بالله عز وجل والتوكل عليه، فأمر الحماية والعناية والنصر، كل ذلك بأمر الله عز وجل، ولقد تعهد الله أن يعصم رسوله عليه السلام من الأعداء مهما خططوا ونفذوا، وسواء أكان ثمة من يحميه من الناس أو لم يكن.

– **ثالثا:** تصحيح مفهوم "العصمة" في عقول المسلمين، فليس معنى العصمة من الناس أن لا يرى منهم إيذاءا أو تعذيبا أو تنكيلا، وإنما معنى العصمة التي تعهد الله بها في قوله تعالى:{والله يعصمك من الناس}[المائدة: ٦٧] هي العصمة من القتل ومن أي صد أو عدوان، من شأنه إيقاف الدعوة الإسلامية"[٩٤]، فالابتلاء سنة من سنن الله، لجميع الأنبياء والمرسلين، لكن ذلك لا يتنافى مع العصمة الموعودة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[٩٣] – "فقه السيرة" لليوطي، ص: ٨٢.

[٩٤] – نفس المصدر، ص: ١٤٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

* المبحث السادس: الاستفادة من العناصر المشتركة بين الإسلام والعقائد الأخرى.

لقد تجهم غير المسلمين من أصحاب العقائد الأخرى، لظهور الإسلام، وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم، واعتبروه نافلة يستغنى عنها، ولا حاجة إليه البتة، ومن ثم اعتبروا ظهور هذا الدين الجديد تحد لهم، ولبقائهم، فناصبوه العداء منذ اللحظات الأولى لظهوره إلى الناس، والحقيقة أن دين الإسلام قد جاء امتدادا لهذه العقائد السماوية، ومصدقا لها، ومبينا مالحقها من تحريف وتبذيل، ولم يأت لإبادة من يدين بغيره، بل جاء في المقام الأول مكملا لها، ومهيمنا عليها، ومصلحا لما أفسده أصحابها، ومعالجا لما حرفوه منها، قال تعالى:{وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه}[المائدة: ٤٨].

أما عن علاقة الإسلام بالعقائد السماوية الأخرى، فهي تحصيل حاصل حسب الشيخ محمد عبد الله دراز، "لأن كلمة الإسلام بالمعنى القرآني، نجدها لا تدع مجالا لهذا السؤال: عن العلاقة بين الإسلام وسائر الأديان السماوية، فالإسلام في لغة القرآن، ليس اسما لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك، الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء"[٩٥].

وعلى أساس ذلك، وجدنا نوحا عليه السلام يعلن لقومه:{وأمرت أن أكون من المسلمين} يونس: ٧٢. وبالإسلام أوصى يعقوب بنيه:{يا بني إن الله اصطفى لكم الدين، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}[البقرة: ١٣٢]، وقد حفظ أبناء يعقوب الوصية جيدا، فأجابوا قائلين:{نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون} البقرة: ١٣٣، وأمر موسى عليه السلام قومه بالإسلام فنادى عليهم:{يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين}[يونس: ٨٤]. وأشهد الحواريون عيسى بن مريم على قولهم:{آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون}[آل عمران: ٥٢]. وصاح

---

[٩٥] – نقلا عن "التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام" للغزالي، ص: ٦٩.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فريق من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن:{آمنا به، إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين}[القصص: ٥٣] وبعد كل هذا، تقرر أن اسم الإسلام، كان شعارا عاما يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية، وسيظل مستمرا إلى يوم القيامة. وهذه حقيقة قرآنية ناصعة، لا غبار عليها، فالله لم يشرع لأمة محمد صلى الله عليه وسلم دينا جديدا، وإنما هو دين الرسل والأنبياء جميعا، قال تعالى:{شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه}[الشورى: ١٣] "وفي سورة الأنبياء، بعدما يسرد الله تعالى سير الأنبياء وأتباعهم، ينظمهم في سلك واحد، ويجعل منهم جميعا أمة واحدة، تعبد إلها واحدا، ويخاطبهم قاطبة:{وأن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون}[٩٦] [الأنبياء: ٩٢]. ولخص الرسول عليه السلام هذه الحقيقة في قوله صلى الله عليه وسلم:"الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد"[٩٧].

وصور الرسول صلى الله عليه وسلم تكامل الرسالات السماوية أحسن تصوير فقال عليه السلام:"إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال:"فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيئين"[٩٨] .

---

[٩٦] – تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٨٥/٣.

[٩٧] – أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب رقم ٦٠: أحاديث الأنبياء، باب رقم: ٥٠ [واذكر في الكتاب مريم..] رقم الحديث: ٣٤٤٣: ٦١٤/٢. وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب:٤٤: الفضائل: باب ٤٠: فضائل عيسى عليه السلام، رقم الحديث: ٦١٥٧: ٨٩٣/٤.

[٩٨] – أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب ٦١: المناقب: باب رقم: ١٨/ خاتم النبيئين، رقم الحديث ٣٥٣٥: ٦٢٧/٢.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كانت الرسالات السماوية مجرد لبنات متراكمة في بناء صرح الإسلام، وكانت مهمة اللبنة الخيرة، أنها أكملت البنيان، وحسنته، وجملته. كما كانت حجر الزاوية الذي يقوي أركان البيت ويحفظه من التصدع والانشقاق، وصدق الله عز وجل إذ يصف محمدا صلى الله عليه وسلم:{بل جاء بالحق وصدق المرسلين}[الصافات: ٣٧].

"وعلى ذلك فالإسلام هو الدين الذي اتحد جميع الرسل على نشره، وتخلصيه من شوائب ما وضعه الواضعون، وإن الإسلام ليس بدين جديد، جاء لأمة معينة، وإنما هو الدين الذي أوحاه الله إلى جميع رسله، فحرفه أتباعهم، ثم أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم أخيرا لإحداث إصلاح ديني عام لسائر الملل، ليكون دينها العام الذي عليه يتم اتحادها، لذلك جعل قاعدته: الإيمان بجميع رسل الله، من نعرف أسماءهم، ومن لا نعرف، وبجميع كتب الله بأي لغة كانت"[٩٩].

إن فهم هذا الأمر حق الفهم، يفيد المسلم وغير المسلم، فيفيد المسلم في معرفته، أنه تابع للدين الأصلي الجامع لسائر العقائد السماوية، ويؤمن بجميع الرسل، ويصدق بجميع الكتب وأما فائدة غير المسلم من فهم هذا الأمر، فلكونه يسهل عليه الخروج من ورطته، والتخلص من شكوكه وشبهاته، فإنه ما من عاقل من عقلاء الملل والأخرى، إلا وتيقن بأن أيدي الخرافات قد امتدت إلى أصول عقائده، فحرفتها، وعبثت بصفاء تعاليمها، فيجد نفسه مضطرا للتأفف منها، راجيا حقيقتها، وإصلاحها، لذلك فلو علم أن الإسلام جاء بالإصلاح الشامل لسائر الشرائع السماوية، لكان رجوعه إليه أمر ضروريا ومحتما. فكلما آلمه أمر مما يزعجه في دينه، وظنه منحرفا عن أصله وحقيقته كعقيدة الصلب والتثليث... لجأ –مضطرا– إلى الإسلام للبحث عن الجواب الشافي، عما يعانيه، ويقلق أمنه النفسي والروحي.

---

[٩٩] – "صفوة العرفان في تفسير القرآن" لمحمد فريد وجدي، ص: ١٤٠.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبناءا على كل ما تقدم، فقد استفاد الرسول عليه السلام من العناصر المشتركة بين الإسلام والعقائد الأخرى –وما أكثرها– خلال مقامه في مكة، فقد "كانت هناك هدنة –إذا صح التعبير– بين الإسلام والنصرانية واليهودية في هذه المرحلة، وعقائد اليهود لم تتغير، وعقائد النصارى لم تتغير، ولكن المعركة في هذه المرحلة [المكية] مفتوحة مع الوثنية"[١٠٠].

وتتجلى هذه الهدنة –المؤقتة– مع اليهود، "بما تضمنته كتبتهم، ومصادرهم الدينية من تأكيد على النبوة الجديدة والأخيرة في تاريخ النبوات، وإن لم تصرح جميعا ماذا سيكون هذا النبي، يهوديا أم غير يهودي؟"[١٠١]. "من أجل ذلك راح اليهود يعلنون، بين الحين والآخر، عن قرب ظهور النبي الأخير، ويتباهون بذلك، ويهددون بالانتماء إليه، ويتوعدون مخالفيهم من أجل مزيد من السيطرة والإذلال واحتكار المقدرات المادية والمعنوية لمئات الآلاف من العرب المحيطين بهم كجزيرة منقطعة"[١٠٢]. كان اليهود على معرفة تامة بأوصاف الرسول الخاتم، وعلامات نبوته، لكن ما فاجأهم، وصدمهم هو أن النبي الجديد والأخير، ليس من سلالة اليهود. "وأنه بانتمائه العربي سيشكل خطرا ما حقا على وجودهم المستغل، وبدعوته العالمية المفتوحة سيكتسح تجمعاتهم القومية المغلقة، وبمبادئه العادلة الواضحة، سيفضح طقوسهم، وأسرارهم التي يرتزقون منها، ويضمنون بقاءهم في المراكز العليا لبني قومهم"[١٠٣].

وتمثل عمليا، موقف اليهود من ظهور دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن بين الديانتين قواسم مشتركة، حينما حل الوفد المكي إلى يثرب، ومضوا إلى اليهود يسألونهم عن دين محمد صلى الله عليه وسلم باعتبارهم أهل كتاب، فقالوا لهم:"سلوه عن ثلاث، فإن أجابكم عنها فهو نبي مرسل، وإلا

---

١٠٠ – "المنهج الحركي للسيرة والنبوية" لمنير محمد الغضبان: ١/١٢٥.

١٠١ – "دراسة في السيرة" للدكتور عماد الدين خليل، ص: ٢٦٥.

١٠٢ – "تاريخ" الطبري: ٢/٣٥٤.

١٠٣ – "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٢٦٧.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهو متقول كذاب، سلوه: عن رجل طاف في الآفاق، ماذا كان خبره؟ وسلوه عن فتية من الدهر الأول، ماذا كان خبرهم؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك، فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم"[١٠٤].

وقد أجاب صلى الله عليه وسلم عن أسئلة اليهود، ونزلت سورة الكهف تبين حقيقة ما قاله الرسول عليه السلام[١٠٥].

"وبذلك شعر المشركون على الأقل، أن اليهود ومحمد صلى الله عليه وسلم في معسكر واحد"[١٠٦]، ويقفون على أرضية مشتركة، وأن بينهما ما يجمع، أكثر مما يفرق، وبذلك ضمن صلى الله عليه وسلم ود وحياد اليهود في المرحلة المكية على الأقل.

أما الموقف الثاني في علاقة الإسلام بالنصرانية، في مكة، فقد جاء متمثلا في وفد النصارى الذين حضروا إلى مكة من الحبشة ليتعرفوا على معالم هذا الدين، قال ابن اسحاق:"ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة: عشرون رجلا أو قريبا من ذلك، من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه، وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا، دعاهم رسول الله، وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به، وصدقوا وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا لهم:"خيبكم الله من ركب، بعثكم من ورائكم، من أهل دينكم، ترتادون لهم، وتأتونهم بخبر الرجل: فلم تطمئن مجالسكم

---

١٠٤ – راجع القصة بكاملها في:"السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٢٣٨/١ وما بعدها، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٧٤/١ وما بعدها.

١٠٥ – "لباب النقول في أسباب النزول" للسيوطي، ص: ١٧٧ في أسباب نزول آيات الكهف.

١٠٦ – "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ١٢٥/١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عنده، حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركبا أحمق منكم، أو كما قالوا، فقالوا لهم:"سلام عليكم، ولا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرا"[١٠٧].

إن إسلام هذا الوفد، زاد من مخاوف قريش وزعمائها، فتأكد لديهم أن الإسلام والنصرانية بينهما من القواسم المشتركة ما يجعلهما في حلف واحد مشترك، فالديانتين معا تتفقان على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته، حيث ذكر الإنجيل صفات محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافه مما جعل النصارى يتعرفون إليه، ويؤمنون برسالته، ونفس الأمر حصل مع اليهود الذين وجدوا أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم، وخصائص رسالته في توراتهم.

إن إيمان أهل الكتاب بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، "مجرد استمرار لإيمانهم السابق، ومجرد سلوك بمقتضى ما كانوا يتمسكون به من عقيدة ودين، فقد كانوا –على حد تعبير رواة السيرة – أهل إنجيل وتوراة، وبما كان الإنجيل والتوراة يأمران أتباعهما بإتباع الرسول عليه السلام، وتحدثا عن صفاته ومميزاته، فقد كان من مقتضى استمرار إيمانهم: الإيمان بهذا النبي وهو صلى الله عليه وسلم"[١٠٨].

وقد استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الأرضية المشتركة بين الإسلام والعقائد الأخرى، وظل السلام قائما بينهما على الأقل خلال المكية –وبذلك أمن صلى الله عليه وسلم جانب النصارى واليهود خلال مقامه في مكة، فكان عليه السلام "يكتفي من دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بمجرد مطالبتهم بتطبيق ما في التوراة والإنجيل، اللذين يدعون الإيمان بهما، فقال جل جلاله:{قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل}[المائدة: ٦٨]"[١٠٩].

---

١٠٧ – "السيرة النبوية: لابن اسحاق: ٢٥٢/١ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٢٦/٢ وما بعدها.

١٠٨ – "فقه السيرة" لليوطي، ص: ١٤٥ بتصرف.

١٠٩ – نفس المصدر، ص: ١٤٥.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إن التقارب بين الإسلام والعقائد الأخرى كان قائما في مكة، على الرغم مما أصاب الديانتين معا: اليهودية والنصرانية من تحريف وتزوير، حيث "أصبحت اليهودية مجموعة من طقوس، وتقاليد لا روح فيها، ولا حياة وهي – بصرف النظر عن ذلك – ديانة سلالية، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة، ولا للإنسانية رحمة"[١١٠]. وأما "المسيحية فقد امتحنت بتحريف الغالين وتأويل الجاهلين ووثنية الرومان المنتصرين منذ عصرها الأول، وأصبح كل ذلك ركاما دفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة، واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله، وراء هذه السحب الكثيفة"[١١١].

فبالرغم من كل هذا التحريف الذي طال اليهودية والنصرانية، فقد ظل فيهما بصيص، وضياء من إيمان، كالتصديق بوجود الله، والإيمان بالجنة والنار والمعرفة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم –وهذا ما دفع وفد الحبشة إلى إعلان الإسلام بين يديه صلى الله عليه وسلم، وجعل يهود يثرب متيقنين بصدق رسالة محمد عليه السلام، وبقاءهم بعيدا عن أي عداء له، ولو إلى حين.

فنظرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أهل الكتاب، أنه جاء مقرا بهم، ومعترفا بديانتهم، "وهكذا يمكن أن يقال إن أهل الديانتين: اليهود والنصارى في مكة، الذين واجهوا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم عيانا، وسمعوه قد رأوا فيه من الأعلام، والصفات النبوية، ما هو متطابق لما هو مكتوب عندهم في أسفار التوراة، والإنجيل، فقابلوا دعوته بترحاب وفرح، وشهدوا بصدقها، وصدق التنزيل القرآني، وآمنوا بهما، مع ما كانوا عليه من الضلال"[١١٢].

هذا ما يؤكده القرآن الكريم، خاصة المكي منه، حيث اثنى الله عز وجل في غير ما آية، على المؤمنين من أهل الكتاب، الذين سارعوا إلى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فور بعثته، ومن

---

١١٠ – "السيرة النبوية" لأبي الحسن الندوي، ص: ٢٣.

١١١ – نفس المصدر، ص: ٢٤.

١١٢ – "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن" لمحمد عزت دروزة: ٣٤١/١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك الآية ١٥٧ من سورة الأعراف والتي جاء فيها:{الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع معه أولئك هم المفلحون}[الأعراف: ١٥٧]. "وهكذا تكون الآية قد تضمنت تقرير حقيقة كان يجهر بها الكتابيون قبل نزول القرآن، وبالتالي تقرير التوافق والتساوق التأمين بين التقريرات القرآنية وما عند الكتابيين، وفي كتبهم من حقائق وبشارات ونعوت، عرفوا أنها بشارات النبي العربي ونعوته"[١١٣].

إلا أن رواة السيرة وأحداثها، لم يذكروا انه ظل في مكة كتابيون متمسكون بدينهم، ولم يندمجوا في الدعوة الإسلامية، ويؤمنوا برسولها محمد صلى الله عليه وسلم[١١٤]. وقد ظهرت في عصرنا الحالي كتابات جادة تؤرخ لمؤمنين أهل الكتاب بالدعوة الإسلامية، وتبين أدوراهم في نشر الإسلام والدعوة إليه"[١١٥].

---

[١١٣] – نفس المصدر: ١/٣٣٠.

[١١٤] – نفس المصدر: ١/٣٤١.

[١١٥] – ومنها:"مؤمنو أهل الكتاب ومكانتهم في الإسلام" للدكتور عمر وفيق الدعوات.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

-خلاصة واستنتاج:

إن علاقة المسلمين بغيرهم في مكة بمرحلتين أساسيتين:

١-المرحلة الأولى وهي: سرية الدعوة، امتدت ثلاث سنوات، وخلالها لم تعر قريش أمر محمد صلى الله عليه وسلم، ودعوته كبير اهتمام، حيث اعتقدته، مجرد متحنث ومتعبد كمن سبقوه إلى ذلك من أهل الجاهلية كقس بن ساعدة وعمرو بن نفيل... وقد بدأت الدعوة الجديدة سرية، وفردية، وبلغت أنباؤها إلى مسامع قريش، لكنها لم تكترث لها، حيث "ترامت هذه الأنباء إلى قريش، فلم تعرها اهتماما، ولعلها حسبت محمدا صلى الله عليه وسلم أحد أولئك الديانين الذين يتكلمون في الألوهية، وحقوقها، كما صنع أمية بن أبي الصلتن وقس بن ساعدة، وعمر بن نفيل وأشباههم إلا أنها توجست حنفة من ذيوع خبره، وامتداد أثره، وأخذت ترقب على الأيام مصيره، ودعوته"[١١٦].

وهكذا مرت ثلاثة أعوام، تكونت خلالها النواة الأولى لجماعة المسلمين، بعيدا عن أعين قريش وعيونها، وظلت العلاقة بين المسلمين والمشركين عادية وهادئة، ولكن ما أن صدع الرسول عليه السلام بدعوته ممتثلا أمر ربه تعالى:{فاصدع بما تومر وأعرض عن المشركين}[الحجر: ٩٤] "فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يعكر على خرافات الشرك وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام، ومالها من قيمة في الحقيقة، يضرب بعجزها الأمثال، ويبين بالبينات أن من عبدها، وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ظلال مبين"[١١٧].

---

[١١٦] - "فقه السيرة" للغزالي، ص: ٧٦.

[١١٧] - "الرحيق المختوم" لصفي الرحمان المباركفوري، ص: ٩٤.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وعلى إثر الجهر بالدعوة، انفجرت أرجاء مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتا يجهر بتضليل المشركين، وتسفيه أحلامهم، وازدراء دينهم، وإبطال عبادتهم، فنزل عليهم ذلك كأنه صاعقة محرقة زلزت الجو الهادئ في مكة.

ويعتبر الجهر بالدعوة للدين جديد في مكة، وعلى مرأى ومسمع من سادتها وكبرائها نقطة تحول جذرية في علاقة قريش مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباع دعوته الجديدة، حيث قامت قريش وقفة رجل واحد، وحشدت الدعم اللازم لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة ولم يأت أحد بمثلها، خشية أن يأتي الدين الجديد على تقاليد مكة وموروثاتها.

وأدركت قريش خطورة ما يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم، فسخرت جميع إمكانياتها للحيلولة دون وصول الدعوة الجديدة إلى الناس خارج مكة، وقبل تفشيها داخلها، حيث بدأت قريش حملتها العدائية بأبسط الوسائل لصد المسلمين في دينهم، والعمل على توهين قواهم المعنوية، فرموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتهم هازلة، وشتموه شتائم سفيهة كمناداته بالساحر والمجنون والشاعر... وبدأوا يثيرون الشبهات حول الإسلام، ويشوهون معالمه، ويبثون الدعايات الكاذبة حوله، وهكذا وصفوا القرآن بأنه {أساطير الأولين} وأنه {إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون}. ولما فشلت الوثنية في كبح جماح الرسول عليه السلام في تبليغ الدعوة، فكرت في سبيل آخر غير سبيل السخرية والاستهزاء والاحتقار، فاهتدت إلى سبيل المفاوضات والمساومات –والتي تكررت كثيرا خلال المرحلة المكية – لكن الرسول عليه السلام ظل موقفه حاسما منها جميعا، وهو الرفض القاطع لكل مساومة رخيصة مقابل الكف عن الدعوة أو التخلي عنها مطلقا.

أعمل المشركون هذه الأساليب التي ذكرناها شيئا فشيئا، لخنق الدعوة الوليدة وهي في مهدها، لكنها لم تجد نفعا، ولم تزد المسلمين إلا إصرارا وعزيمة على التشبث بالإسلام، والدعوة إليه. وكرد فعل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على ذلك "اتخذ زعماء قريش قرارا حاسما، وصمموا على تنفيذه، وهو: أن لا تألَ قريش جهدا في محاربة الإسلام، وإيذاء رسوله، وتعذيب الداخلين فيه، والتعرض لهم بألوان من النكال والإيلام"[١١٨]..

"فقررت قريش أن تدع أسلوب المفاوضة والحوار، إلى العنف والقوة، وأن تعلن حربها ضد الدعوة الجديدة والمنتمين إليها، وأن تدفع كل قبيلة منها إلى أن تنقض على المسلمين من أبنائها، فتعمل فيهم تعذيبا، وتفتنهم عن دينهم، فنفذت القبائل تعليمات الزعامة الوثنية، وصبت على رؤوس المسلمين عذابها ومطاردتها وأذاها"[١١٩].

وعلى إثر ذلك سطر عليه السلام خطة دفاعية على السابقين الأولين، وإبقاءا على حياتهم، حيث حث عليه السلام على استنقاذ المستضعفين، تحت التعذيب بالعنف، ومنع المسلمين من إظهار إسلامهم وإعلانه وسمح للضعفاء بتغيير دينهم قولا لا اعتقادا، وأخير أمرهم بالهجرة إلى الحبشة.

إن العلاقة بين المسلمين وغيرهم في مكة، كانت علاقة استئصالية، "وكان موقف زعماء مكة من النبي ودعوته سلبيا بل وعدوانيا منذ الخطوات الأولى من العهد المكي، وظل الأمر كذلك باستثناءات قليلة طيلة هذا العهد، وقد كان لهذا الموقف أثر كبير، بل نكاد نقول الأثر في بقاء الإسلام ضعيفا في نطاقه وعدده وقوته، وفيما لاقاه النبي والمسلمون من صعوبة ومشقة وأذى طيلة العهد الذي استمر ثلاثة عشر عاما على أرجح الأقوال"[١٢٠].

ويستغرب محمد رشيد رضا هذا الموقف العدواني لمشركي العرب من محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته، لأنهم "كانوا أقوى البشر استعدادا لهداية هذا الوحي، إذا عقلوه وآمنوا به، لأنه لم يكن عندهم

---

١١٨ – "رحمة للعالمين" للمنصور فوري: ١/٥٩ و٦٠.

١١٩ – "دراسة في السيرة" للدكتور عماد الدين خليل، ص: ٥٧.

١٢٠ – "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم" لمحمد عزت دروزة: ١/٢٦.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من التقاليد الدينية المسيطرة على القلوب والإرادات، ولا من أمشاج الفلسفة البشرية الشاغلة للعقول والأفكار، ولا من الاستبداد السياسي، والاستبعاد الروحي السالبين لاستقلال الأفراد والجماعات، وما يصرفهم عن فقهه [الوحي المحمدي] وتدبره، والاهتداء به، أو يأفكهم عن الدعوة إليه، وحمايته، والجهاد بالأموال، والأنفس في سبيل إقامته"[١٢١] .

إن هذا الموقف العدائي للوثنية إزاء محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته، يرجع إلى مجموعة من الأسباب الأصلية، وأخرى بطبيعة الدعوة الإسلامية نفسها[١٢٢].

ولعل من الأسباب الأصلية: ما كان للزعامة من دور خطير في المجتمع العربي، حيث كان الزعماء –خاصة الأغنياء– يتمتعون بنفوذ السيادة: يأمرون فيطاعون، ويدعون فيستجابون، ويسنون فيتبعون، لذلك كبر عليهم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم ندا لهم في ذلك أو أن يقاسمهم الزعامة والريادة في مكة، خاصة بعد تزايد أتباعه، وامتثالهم لأوامره.

أما الأسباب المرتبطة بطبيعة الدعوة الإسلامية فمنها:

– **أولا**: ما كان من قوة رسوخ عصبية التقاليد في المجتمع العربي، وما استهدفته الدعوة الجديدة من هدم كثير من تقاليد العرب الأصلية والفرعية أو تعديلها كالشرك على أنواعه، والاستشفاع بالملائكة وعقيدة كونهم بنات لله عز وجل.

– **ثانيا**: خوف الزعامة القرشية، وأغنياء مكة معا، على ما كان لهم، ولمكة، من مركز ومنافع أدبية ومادية عظيمة بسبب وجود البيت الحرام في مكة. فقد كان هذا البيت مثابة وأمنا لجميع العرب على اختلاف أديانهم وقبائلهم، يؤمونه من كل فج وصوب، ويقيمون حوله أسواقهم كما كانوا يعتبرون

---

[١٢١] – "الوحي المحمدي" لمحمد رشيد رضا، ص: ٨٢ وما بعدها.

[١٢٢] – راجع هذه الأسباب مفصلة في:"سيرة الرسول" لدروزة: ٤٣/١ وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قريشا إماما لهم، في الأمور الدينية والدنيوية، وكانت هذه الإمامة تحفظ لهؤلاء عزة الجانب، ووفرة الحرمة، وكان ذلك الخوف ناشئا من أن نجاح الدعوة الإسلامية سيكون سببا لانصراف الناس عن مكة، وانفضاضهم حولها، أو تهجم العرب لمكة وأهلها.

– **ثالثا**: ما أثاره القرآن فيهم بالإنذار بالبعث والقيامة، من عجب واستغراب، لاسيما أن هذا الأمر لم يكن معروفا عندهم بهذه الصراحة والوضوح، ولعل هذا الموضوع من أهم مواضيع القرآن المكي توكيدا وجدلا وبرهنة وعظة ووعدا ووعيدا، حتى لا تكاد تخلو سورة من سوره منه، كما أن هذا الموضوع من أهم المواضيع التي ثار الجدل واللجاج حولها بين الرسول عليه السلام والعرب، لذلك حكى القرآن كثيرا من مواقف العرب منه، وأقوالهم فيه، بأساليب شتى، فكان موقفهم منه: موقف المستكبر حينا، والمدهوش حينا، والمكذب حينا، والمستهزئ حينا، والمتحدي حينا من البداية إلى النهاية.

– **رابعا**: كانت طبيعة النبي عليه السلام البشرية من أسباب هذا الموقف المتشدد منه ومن دعوته، فقد تمنت العرب بعثة نبي فيهم حقا، ولكنهم كانوا يتخيلونه ذا قوى خارقة، يفترق بها عن طبائع البشر، ويستطيع بها فعل ما لا يفعله سائر الناس من خوارق العادات والمشاهد، ولعل ما كان يبلغهم عن الأنبياء –ولو باطلا– ومعجزاتهم الخارقة، مما كان يقوي صحة هذا التخيل، فلما رأوا محمدا صلى الله عليه وسلم بشرا مثلهم، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وسمعوه يعلن بلسان القرآن أنه لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله، كذبوه، وأنكروا صلته بالله ونعتوه بأعزب الأوصاف، وأقدح النعوت.

وعلى العكس من ذلك، فقد جاء موقف العرب الكتابيين، مغايرا لموقف العرب المشركين، "فقد كان في مكة خاصة بعض الجاليات الكتابية يرجع تاريخ سكناها إلى ما قبل البعثة، وشهدت أدوار الدعوة النبوية، ولم تكن في عزلة عنها بطبيعة الحال هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن بين الدعوة النبوية

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

القرآنية والديانتين الكتابيتين جامعة تجمع بينهما وهي: وحدانية الله صريحة ومؤولة ووحدة المصدر الذي صدرت عنه الديانات الثلاث وكتبها، وقد كان الكتابيون ممن وجهت إليهم الدعوة بصورة عامة وخاصة"[١٢٣]. وقد قبل العرب الكتابيون دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وآمنوا برسالته، كما وجدوا فيه من أعلام وصفات نبوية، تطابقت لما هو مكتوب عندهم في أسفار التوراة والإنجيل.

---

١٢٣ – "سيرة الرسول" لمحمد عزت دروزة: ٣٢٨/١.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المحتويات

معالم العلاقة مع غير المسلمين في حالتي الضعف والخوف[المرحلة المكية نموذجاً].....٢

* المبحث الأول: الاشتغال بسرية الدعوة، مع التركيز على بناء العقيدة ٦

* المبحث الثاني: الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، مع الإعراض عن المشركين..... ١٦

*المبحث الثالث: رفض الإغراءات والمساومات على حساب العقيدة. ١٨

* المبحث الرابع: المقاومة السلمية للمسلمين والدفاع عن النفس عند الضرورة القصوى. ٢٥

* المبحث الخامس: الاستفادة من قوانين المجتمع الكافر: [مثلا قوانين: الحماية، والجوار، والتعصب للقبيلة].
..... ٣٤

* المبحث السادس: الاستفادة من العناصر المشتركة بين الإسلام والعقائد الأخرى..... ٤٩

-خلاصة واستنتاج: ٥٧